الفصل الرابع

نماذج لأشخاص لم ييأسوا ففازوا بالمآرب

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد: في الاقتداء بذوي المواقف الناجحة.

المبحث الأول: وقفات مع قصص الأنبياء والمرسلين.

المبحث الثاني: وقفات مع قصص أتباع الرسل والصالحين.

المبحث الثالث: وقفات مع قصص أخرى.

obeikan.com

التمهيد

في الاقتداء بذوي المواقف الناجحة

من أهمّ وأنفع الأدوية لعلاج اليأس والإحباط المرضي، النظر إلى قصص أصحاب المواقف الناجحة عبر التاريخ للاقتداء بهم، والتأسّي بمواقفهم النيرة، والتخلّق بأخلاقهم السامية. وأصحاب المواقف الناجحة في هذه الحياة الدنيا، هم الذين عرفوا كيفية التعامل مع الأحوال والملابسات، وفقهوا مجريات الأمور، فتراهم – لمعرفتهم التامة، وفقههم العميق للحياة، عندما تنزل بساحتهم مختلف أسباب اليأس والإحباط – لا يستسلمون لها، بل يستخدمون جميع الأدوية اللازمة للقضاء عليها، خصوصا تلك الأدوية الإرشادية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، فهؤلاء هم أحق بالاقتداء وأولى بالتأسي بهم من غير هم من الذين يقفون أمام مسببات اليأس والإحباط حيارى لا يعرفون المتجه، بل يستسلمون للواقع المر، ويصابون بالإحباط المرضي.

إن أفراح الدنيا ممزوجة بالأتراح، ومسراتها مشوبة بالمضرات، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. لذلك لما سمع حكيم رجلا يقول لآخر: لا أراك الله مكروها، قال له: كأنك دعوت عليه بالموت، فإن صاحب الدنيا لا بد أن يرى مكروها[١] فالمطلوب من الإنسان أيام البلاء إذًا، "أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل واد بنو سعد[٢]، ولينظر يمنة فهل يرى إلا محنة، ثم ليعطف يسرة، فهل يرى إلا حسرة، وأنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، وأن سرور الدنيا أحلام نوم، أو كظل زائل، إن أضحكت قليلا، أبكت كثيرا، وإن سرّت يوما، ساءت دهرا، وإن متعت قليلا، منعت

---

(١)- محمد أحمد الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، بيروت – لبنان، دار مكتبة الحياة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج٢، ص: ٦٧.

(٢)- هذا مثَلٌ قاله الأضبط بن قريع من بني سعد، كان قد رأى ما يكره من قومه فتحول عنهم. فلما لم يجد عند غيرهم ما يرضيه أيضا رجع وقال: بكل واد بنو سعد. فذهب قوله مثلا يضرب لمن لم يجد من يلقاه كمن فارقه. لويس معلوف، المنجد في اللغة، ملحق بآخره كتاب: فرائد الأدب في الأمثال والأقوال السائرة عند العرب، بيروت، دار المشرق، ط٢٨، ١٩٨٦م، ص: ١٠١٢.

طويلا، وما ملأت دارا خيرة إلا ملأتها عبرة، ولا سرته بيوم سرور، إلا خبأت له يوم شرور"[١].

فاللبيب من اعتبر بالأحداث الماضية، ونظر إلى سير ذوي المواقف الناجحة، واقتدى بهم فيما نجحوا فيه من حياتهم، وعرف كيف عالجوا مشكلاتهم، ليستخدم العلاج نفسه إن حلّ به مثل ما حلّ بهم، قال الشاعر:

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا ... وَعَنَاهُم مِّن شَأْنِهِ مَا عَنَانَا[٢]

وَتَوَلَّوْا بِغَصَّةٍ كُلِّهِم مِّنْـ ... ـهُ وَإِن سَرَّ بَعْضَهُمْ أَحْيَانَا[٣]

رُبَّمَا تُحْسِنُ الصَّنِيعَ لَيَالِيـ ... ـهِ وَلَكِن تُكَدِّرُ الْإِحْسَانَا

كُلُّ مَا لَمْ يَكُن مِّنَ الصَّعْبِ فِي ... فُسِ سَهْلٌ فِيهَا إِذَا هُوَ كَانَا[٤]

الْأنـ

إن الاقتداء والتأسي بالأخيار أمرٌ أصيل، وركنٌ أساسي في بناء الشخصية الناجحة، ولا يتأتى ذلك إلا للجادين المجتهدين؛ لأنه من السهل تصفّح النظريات المسطورة في الكتب، وتخيّل منهج شامل للحياة المثلى، ولكن هذا المنهج يظل حبرا على ورق، معلقا في الفضاء، ما لم يتحوّل إلى حقيقة واقعة تتحرك في واقع الأرض، ما لم يتحوّل إلى بشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ المنهج ومعانيه، عندئذ فقط يتحول المنهج إلى حقيقة، يتحوّل إلى حركة، يتحول إلى تاريخ[٥].

فلكي لا ييأس الإنسان عن درك مأمول ودفع مكروه، ولكيلا يصاب بالإحباط، ملأ الله تاريخ البشرية بمجموعة من الأخيار أصابهم من مسببات اليأس والإحباط ما الله به

---

(١) ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، مرجع سابق، ص: ١٤٨.

(٢) عناهم: أهمهم.

(٣) تولّوا: ذهبوا. أي تركوه، والغصة في قلوبهم منه، لَمَّا أدركوا مرادهم فيه، ولو سرهم أحيانا.

(٤) أي: يصعب الأمر على النفوس قبل أن يقع، فإن فإذا وقع صار هينا. والأبيات لأبي الطيب المتنبي، انظر: مصطفى سبيتي، شرح ديوان المتنبي، مرجع سابق، ج٢، ص: ٢٣٧.

(٥) محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، القاهرة، دار الشروق، ط١٦، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ج١، ص: ١٨٠.

عليم، فطبقوا في الواقع التوجيهات القرآنية، وعالجوا كل المشكلات النفسية، وقضوا على جميع الأمراض القلبية، وحققوا في الحياة انتصارات عزيزة. وفي مقدمة هؤلاء الأخيار الأنبياء والرسل الكرام، والذين اتبعوهم بإحسان في كل زمان ومكان، فلا غرو أن ترد في القرآن الكريم مجموعة من الآيات تحث على الاقتداء بهم، والتأسي بمواقفهم، كما في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقوله: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ ﴾ [الأحزاب]، وقوله: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤].

ولأهمية القدوة في القضاء على اليأس والإحباط، ولضرورتها في إنجاح الحياة وإسعادها، من المستحسن – في هذا الصدد – إيراد نماذج من قصص هؤلاء الأخيار، ليقف القارئ على مواقفهم الناجحة، ويرى كيف طبقوا تعليمات القرآن الحكيم، وعالجوا جميع المشكلات النفسية، لاسيما مشكلتي اليأس والإحباط.

المبحث الأول

وقفات مع قصص الأنبياء والمرسلين

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: وقفة مع سيرة النبي ﷺ

المطلب الثاني: وقفة مع قصص أولي العزم من الرسل.

المطلب الثالث: وقفة مع قصص بعض الرسل الوارد ذكرهم في القرآن

obeikan.com

المطلب الأول

وقفة مع سيرة النبي ﷺ

إن في سيرة المصطفى ﷺ عبرة للمعتبرين، وقدوة للمقتدين، فقد كان عليه الصلاة والسلام مثالا واقعيا لكل تعليمات القرآن الكريم، وتطبيقا عمليا لجميع توجيهاته وإرشاداته، وذلك ليتمكن الناس من الاقتداء بفعاله، والتأسي بأحواله، طبقا لقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب].

لقد علم الله سبحانه – إذ أنزل القرآن هدى للناس – أنه لا بد من قلب إنسان يحمل منهجه وتعاليمه ويحولها إلى حقيقة، لكي يعرف الناس أنه حق ثم يتبعوه، لذلك بعث محمدا ﷺ ليكون قدوة للناس، ووضع في شخصه الصورة الكاملة للهدي القرآني والمنهج الإسلامي، الصورة الحية الخالدة على مدار التاريخ(١).

ومن الجوانب المشرقة في سيرة الرسول ﷺ التي يتأكد التأسي به فيها، مواقفه عليه الصلاة والسلام في معالجة اليأس، واستعماله في ذلك الأدوية القرآنية للقضاء عليه. فقد كانت سيرته عليه الصلاة والسلام مليئة بمواقف توفّر فيها مختلف أصناف أسباب اليأس ودواعي الإحباط، إلا أنه عليه الصلاة والسلام لم ييأس ولم يُصب بالإحباط في طريق تحقيق أهدافه، بل عالج ذلك بالأدوية القرآنية الشافية علاجا ناجعا. من تلك المواقف ما يأتي:

وقفة مع إيمانه ﷺ بالمبدأ وثباته عليه:

كان الإيمان بالمبدأ والثبات عليه صفة بارزة من صفاته عليه الصلاة والسلام، وخُلقًا أصيلا من أخلاقه ﷺ، وخير مثال شاهد لذلك: ثباته على تبليغ الدعوة، مع أن جميع الناس في ذلك الوقت كانوا ضده، فقد انعقد إجماع قريش على منع الرسول ﷺ من تبليغ رسالات ربه، حتى أمروا عمه أبا طالب(٢) بأن يصده عن ذلك، فلما ظن عليه الصلاة

---

(١) محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، مرجع سابق، ج١، ص: ١٨٠ – ١٨١.

(٢) هو عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم، من قريش، أبو طالب: والد علي ﷺ، وعم النبي ﷺ وكافله ومربيه ومناصره، كان من أبطال بني هاشم ورؤسائهم ومن الخطباء العقلاء الأباة، ودعاه

والسلام أن عمه خاذلُه ومُسْلِمُه، وأنه قد ضعف عن نصرته، أعلن كلماته الخالدة التي تدل على الإيمان والثبات على المبدأ قائلا: "والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه"[١]، ثم قام عليه الصلاة والسلام واستعبر[٢] باكيا. إن هذه لهي كلمات الحق منبئةً عن الإيمان والثبات على المبدأ، تتردد على لسان صاحب الرسالة الإسلامية الخالدة لِتعلن إلى الدنيا كيف يكون اليقين والثبات، وكيف تكون التضحية والفداء، وكيف يجب أن تكون الدعوة إلى الله؟ فلما رأى عمه إيمانه الصادق، وثباته الراسخ في المضي في طريق الدعوة، غير مكترث لأحد، ولا عابئ بإنسان، ناداه وقال له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا، ثم أنشأ:

وَاللهِ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا
فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ ... وَابْشِرْ بِذَاكَ وَقَرَّ مِنْهُ عُيُونَا
وَدَعَوْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ نَاصِحِي ... فَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنتَ قِدْمَ أَمِينَا
وَعَرَضْتَ دِينًا لاَ مَحَالَةَ أَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلاَ الْمَلاَمَةُ أَوْ حَذَارَ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا[٣]

فأي ثبات على العقيدة والمبدأ أعظم من هذا الثبات؟ وأي امتحان للإيمان أكبر من هذا الامتحان؟ ولو لم يكن لنبينا (عليه الصلاة والسلام) إلا هذا لكفاه على مدى الزمان، وتعاقب الأجيال فخرا وشرفا وخلودا[٤].

النبي ﷺ إلى الإسلام فامتنع خوفا من أن تعيره العرب بتركه دين آبائه، ووعده بنصرته وحمايته، وفيه الآية «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ» [القصص: ٥٦]، واستمر على ذلك إلى أن توفي سنة ثلاث قبل الهجرة، مولده ووفاته بمكة. خير الدين الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج٤، ص:١٦٦.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مؤسسة علوم القرآن، ج١، ص: ٢٦٦.

(٢) استعبر: جرى دمعه.

(٣) أبو الفداء الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: أحمد عبد الوهاب فتيح، القاهرة، دار الحديث، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج٣، ص: ٩٢.

(٤) عبد الله ناصح علوان، مرجع سابق، ج٢، ص: ٤٨٥.

إن هذا الإيمان وهذا الثبات على المبدأ الذي استخدمه الرسول ﷺ، كان أنجع دواء لمشكلة إعراض قومه عنه، فكانت العاقبة له ﷺ، وكان التمكين لدينه القويم الذي دعا الناس إليه.

وقفة مع صبره ﷺ على البلايا، وعدم تأثره بالنقد الهدام:

قد عانى الرسول ﷺ في سبيل هذا الدين كل المعاناة، وأوذي بأشد أنواع الأذى، وواجهه مختلف صنوف البلايا والمحن، لكنه عالج ذلك كله بالصبر، فقد لحقه من المشركين ما لحقه من شق الفرث عليه، ومحاولة قتله، وما كانوا يكاشفونه به من السب والتكذيب والاستهزاء والتأنيب، ورميهم له ﷺ بالجنون تارة، وقصدهم إياه غير مرة بأنواع الأذى والفضيحة والافتراء تارة أخرى. والرسول ﷺ في جميع ذلك صابر محتسب، غير عابئ بهم، فكانت نتيجة ذلك الصبر ما أعقبه الله (عز وجل) من ذلك بالنصر والتمكين، وإعزاز الدين وإظهاره، وإذلال المعاندين له والمكذبين، وتدميرهم كل تدمير، ونصره ﷺ عليهم[1] كما عانى ﷺ أيضا من جفاة العرب ما يعجز عن حمله حلم حليم، ولكنه عليه الصلاة والسلام عالج كل ذلك بالصبر والتحمل.

فَكَمْ غِلْظَةٍ جاءتْهُ مِن ذي جَهالـةٍ فَأوسعهُ حِلْمًا وقدْ كانَ يَصْفَحُ[2]

وبما أنه قد تحقق في الواقع العملي، أن رسول الله ﷺ "كان أصبر الناس على أوزار الناس"[3] فقد استخدم ﷺ هذه الصفة الجميلة، وهذا الخلق النبيل لعلاج النقد الذاتي الهدام، الذي يصدر من المنافقين للنيل من شخصيته الكريمة. فقد روي أنه لما كان يوم حنين قسّم رسول الله ﷺ قسمة، فآثر فيها ناسا، فقال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله، فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك، تغيّر وجهه واحمرّ، ثم قال: "يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ"[4].

---

(١) أبو علي المحسن بن علي التنوخي، الفرج بعد الشدة، بيروت–لبنان، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص: ١٨.

(٢) البيت من إنشاء الباحث، من ديوانه المسمى: الروض الجميل في مدح صاحب الطرف الكحيل، مخطوط غير منشور.

(٣) محمد ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي، ج١، ص: ١٨٢.

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري عن ابن مسعود في صحيحه، مصدر سابق، كتاب أبواب الخمس،

وقفة مع توكله ﷺ على الله واتخاذه الأسباب:

إن في سيرة الرسول ﷺ نماذج رائعة للتوكل على الله، وتفويض الأمر إليه، من ذلك ما حدث في غزوة أحد، فإن الكفار في تلك الغزوة أصابوا من المسلمين ما أصابوا ورجعوا، فأرسلوا إثرها عيرا من التجار يهددون الرسول وأصحابه بجيوش الكفار، وكتائب الوثنية، وأجمعوا على المسير إليه وإلى أصحابه لاستئصال بقيتهم. والواضح أن ذلك من أعظم أسباب اليأس ودواعي الإحباط، لكن الرسول وأصحابه استعملوا لعلاج تلك المشكلة التوكل الحقيقي بالله تعالى، فقالوا: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران]، فأقام النبي ﷺ وأصحابه بحمراء الأسد[1]، ولم يراعوا بتهديد المشركين، فكانت نتيجة ذلك ما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران].

والجدير بالذكر هنا أن النبي (عليه الصلاة والسلام) مع توكله واعتماده على الله، كان كثير الأخذ بالأسباب، وذلك لتحقيق تمام التوكل، ومراعاة سنة الله في الكون، فكان كثير الأخذ بالأسباب التي نصبها الله لمسبباتها قدرا وشرعا. فهو ﷺ وأصحابه، أكمل الخلق توكّلا، ومع ذلك كانوا يلقون عدوهم وهم متحصنون بأنواع السلاح، وكان عليه السلام بعد أن أهدت له اليهودية الشاة المسمومة لا يأكل طعاما قُدّم له حتى يأكل منه من قدّمه، مع أن الله تعالى أنزل عليه قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ المائدة: ٦٧. ففعله هذا لا ينافي التوكّل، فإن ضمان الله له العصمة لا ينافي تعاطيه لأسبابها، فضمان العصمة منه (تبارك وتعالى) لا يناقض احتراسه من الناس ولا ينافيه[2].

وقفة مع قوة رجائه وأمله ﷺ في تمكين الدين:

باب ما كان يعطي النبي ﷺ المؤلفة قلوبهم، الحديث: ٢٩٨١، ج٣، ص: ١١٤٨، ومسلم عنه في صحيحه، مصدر سابق، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، الحديث (١٠٦٢)، ٧٣٩/٢.

(١) حمراء الأسد: موضع على ثمانية أميال من المدينة المنورة عن يسار الطريق إذا أردت ذا الحليفة. عبد الله بن عبد العزيز البكري، معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفى السقا، بيروت، عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٣هـ، ج١، ص: ٤٦٨.

(٢) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١٥، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٣، ص: ٤٨٠.

كان أمله ﷺ في الله قويًا، ورجاؤه في تمكين دينه عظيما، وبهما تمكّن من معالجة اليأس في حياته. ففي غزوة الأحزاب حين تألّب الشرك الوثني بكل عناصره، والغدر اليهودي بكل تاريخه، واشتد الأمر على النبي وأصحابه؛ قريش وغطفان ومن يحطب في حبلهما من خارج المدينة، واليهود والمنافقون من الداخل. موقف عصيب صوّره القرآن بقوله: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب]، في هذه الساعات الرهيبة التي يذوي فيها عود الأمل، ويخبو شعاع الرجاء، ولا يفكّر المرء إلا في الخلاص والنجاة... في هذه اللحظات – والنبي يسهم مع أصحابه في حفر الخندق حول المدينة يصدون به الغزاة، ويعوقون الطامعين العتاة – يحدث النبي أصحابه عن الغد المأمول، والمستقبل المرجو حين يفتح الله عليهم بلاد كسرى بفارس، وبلاد قيصر بالشام، وبلاد اليمن بالجزيرة، حديث المؤمل الراجي، الواثق المطمئن بنصر الله[1].

وقفة مع ثقته ﷺ في نصر الله:

منذ أن جهر الرسول ﷺ بدعوته، وصدع بأمره، كان واثقا من نصرة الله إياه والتمكين لهذا الدين، ولم يختلج ضميره أدنى شك في ذلك، ومن الشواهد في ثقته بنصر الله ما سبق من نزول قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]، فقد نزل بمكة والنبي واثق من انهزام جمع الكفار، ولكن لم يفهم عمر حق تأويلها إلا حين سمعها من رسول الله ﷺ يوم بدر، فعرف حقيقة تفسيرها في ذلك اليوم[2] ومن ذلك أيضا ما سبق ذكره في هجرة النبي ﷺ إلى المدينة مع أبي بكر ﷺ، ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ ﴾ [التوبة: ٤٠]. إن الذي أدهش أبا بكر ﷺ، هو حشد جموع الكفار، واقترابهم منهم، موقف يسبب اليأس، ويدعو إلى الإحباط، لكن الرسول (عليه الصلاة والسلام) لشدة وثوقه بنصر الله لم يتأثر به، بل طمأن صاحبه بأن الله ناصره ومؤيده، ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ

(١) يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، مرجع سابق، ص: ١٤٣ – ١٤٤.
(٢) راجع ص: ٢٠١ من هذه الرسالة.

لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [التوبة].

وقفة مع حلمه وأناته ﷺ وتركه الاستعجال:

الحلم والأناة من الأخلاق الفاضلة التي تخلّق بهما رسول الله ﷺ، وذكر شرفهما، ودعا الناس إلى التخلق بهما، وهما من الأدوية العلاجية التي استخدمها (عليه الصلاة والسلام) للقضاء على كثير من المشكلات النفسية، ومعالجة مسببات اليأس والإحباط. فقد كان بإمكانه عليه السلام أن يدعو على الكافرين بالعذاب، كما حصل للأمم قبله، ولكنه لحلمه وأناته، ولتطبيقه لأوامر الله بعدم الاستعجال في الأمور، لم يفعل ذلك. بل حاول جاهدا أن يمنع أصحابه من الاستعجال. فقد روي أن الصحابة الكرام، لما اشتد أذى المشركين لهم، وتباطأ مجيء النصر، اشتكى بعضهم إلى الرسول ليدعو على المشركين بالهلاك، ليتحقق التمكين والنصرة لدين الله في أقل وقت ممكن، فقد جاء أحد أصحابه: خباب بن الأرت[1]. وكانت مولاته تكوي ظهره بالحديد المحمى، فضاق بهذا العذاب ذرعا، وقال للرسول: ألا تدعو لنا؟ فغضب النبي ﷺ لهذه العجلة، وألقى عليه درسا في الصبر على البأساء، والأمل في نصر الغد، فقال: "إِنَّ الرَّجُلَ قَبْلَكُمْ كَانَ يُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ وَعَصَبٍ، وَيُنْشَرُ بِالْمِنْشَارِ فِرْقَتَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُظْهِرَنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"[2].

وقفة مع علو همته ﷺ:

إن أعظم مثل للهمة العالية يكمن في سيرته (عليه الصلاة والسلام). فقد قضى على اليأس بعلو همته، وعالج بذلك الرضا بالدون والقناعة بالوضع الخسيس معالجة

(١) هو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة، أبو يحيى التميمي، وقيل: كنيته أبو عبد الله، من نجباء السابقين، شهد بدرا والمشاهد كلها، قيل: مات في خلافة عمر وصلى عليه عمر، وقيل: مات بالكوفة سنة سبع وثلاثين، وصلى عليه علي، وقيل: عاش ثلاثا وسبعين سنة. أبو عبد الله الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج٢، ص: ٣٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، مصدر سابق، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، الحديث: ٦٥٤٤، ج٦، ص: ٢٥٤٦.

تامة، وذلك في بناء الأمة الإسلامية، وإعدادها من جميع النواحي. إذ المعروف عند أهل التواريخ أن بناء الأمم يحتاج إلى أجيال متعاقبة لتحقيقه، وإلى مدة زمنية طويلة لإجرائه، لكنه ﷺ استطاع – بهمته العالية – بناء خير أمة أخرجت للناس في أقل من ربع قرن، واستطاعت هذه الأمة أن تنير بالإسلام غالب الأجزاء المعروفة آنذاك، وجهاده ﷺ وعمله وهمته العالية في بناء الأمة أمر معروف، وهو مما تقاصر عنه أطماع أهل الهمة العالية وخيالاتهم وما يتطلعون إليه[1].

وقفة مع مداومته ﷺ على العبادة والذكر، واستكثاره الاستغفار والتوبة:

سبق أن المداومة على العبادة والذكر، والإكثار من التوبة والاستغفار، من أعظم وأنفع الأدوية للأمراض النفسية. فلنبينا (عليه الصلاة والسلام) في هذا الجانب أوفر حظ ونصيب، امتثالا لأمر ربه ﷻ حين يقول له: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ الحجر، فقد كان (عليه الصلاة والسلام) أكثر الناس مداومة على العبادة لمعرفته التامة بحقوق الله وصفاته، وما يستحقه من التعظيم، لذا كان مواظبا على فعل الخيرات إلى حين الوفاة[2] وكان إذا شعر بحالة نفسية غير مرضية، لجأ إلى مولاه مواظبا على عبادته وذكره، كما سبق من الأحاديث أنه ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[3] وأنه كان يقول: "أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ"[4] يعني الصلاة.

وأما مداومته على الذكر، فقد كانت تلاوة القرآن الكريم شغله الشاغل الذي لا يفارقه في جميع لحظاته، بل كان مداوما عليه آناء الليل وأطراف النهار.

وأما الاستغفار والتوبة فمن الأعمال التعبدية التي كان ملازما لها مع أنه غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر، فكان الاستغفار من الأدوية العلاجية التي يستخدمها لعلاج أي حالة نفسية غير ملائمة لمقامه الشريف، فقد روي عنه ﷺ قوله: "إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَيَّ، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ"[5] وقد فُسِّر الغين هنا: بأنه فترات عن الذكر

(١) محمد موسى الشريف، مرجع سابق، ص: ٣٤ – ٣٥.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج٢، ص: ٥٤١.
(٣) سبق تخريجه، راجع ص: ٢١١، من هذه الرسالة.
(٤) سبق تخريجه أيضا، راجع ص: ٢١١، من هذه الرسالة.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب

الذي شأنه أن يداوم عليه، فإذا فتر عنه لأمر ما عد ذلك ذنبا فاستغفر عنه[١].

وقد استعان نبينا (عليه الصلاة والسلام) بالدوام على العبادة والذكر والاستغفار للقضاء على يأس الحياة وبؤسها، فحصل على طاقة روحية متميزة، حقق بها إنجازا أمثل، وفتح الله عليه ما لم يفتح على نبي قبله، ولا على داعية مصلح بعده.

وقفة مع لجوئه ﷺ إلى الدعاء وكثرة تضرعه إلى الله:

كان (عليه الصلاة والسلام) كثيرَ اللجوء إلى الله بالدعاء، وكثير التضرع إليه لإجابة ما دعاه، وخاصة إذ حزبه أمرٌ أو نزل به خطبٌ، بذلك يعالج جميع الأدواء النازلة به. فلم يعرف عنه عليه السلام أنه يئس قط من دفع مكروه، أو جلب مأمول. والشاهد على ذلك قصته ﷺ مع أهل الطائف حين مشى إليهم ودعاهم إلى الله ونصرة دينه، فلم يستمعوا إليه، ولم يقبلوا دعوته، بل أخرجوه من بلادهم، وأغروا به سفهاءهم، وفعلوا له الأفاعيل، ومع ذلك لم ييأس من نجاح الدعوة، بل أنزل حاجته إلى مجيب الدعوات فقال متضرعا إلى الله سبحانه وتعالى: "اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَنْتَ رَبِّي وَرَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي أَوْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَانَ عَلَيَّ فَلا أُبَالِي غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَكَ الْعُقْبَى حَتَّى تَرْضَى وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِكَ"[٢]. فكان عاقبة هذا الدعاء أن بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، فقال: إن الله سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فقال ملك الجبال: يا محمد، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[٣] لفعلت. قال النبي ﷺ: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ

استحباب الاستغفار والاستكثار منه، الحديث: ٢٧٠٢، ج٤، ص: ٢٠٧٥.

(١) الحافظ ابن حجر، فتح الباري، مرجع سابق، ج١١، ص: ١٠١.

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع، ج٦، ص: ٣٥، وابن كثير، في البداية والنهاية، مرجع سابق، ج٣، ص: ١٨٠ – ١٨١.

(٣) الأخشبان: هما جبلا مكة: أبو قبيس والذي يقابله، وهو قعيقعان..

أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"[1].

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري عن عبد بن مسعود في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء... الحديث: ٣٠٥٩، ج٣، ص: ١١٨٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، الحديث: ١٧٩٥، ج٣، ص: ١٤٢.

obeikan.com

المطلب الثاني

وقفة مع قصص أولي العزم من الرسل

كما كانت في سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام قدوة وأسوة للناس، كذلك في قصص أولي العزم من الرسل عبرة للمعتبرين، وعظة للمتعظين، فكانت حيواتهم نماذج حيَّة لما ينبغي أن تسير عليه العيشة البشرية، ومجالا رحبا ينبغي أن تسير عليه قدوة الناس كافة. فقد قالت عائشة رضي الله عنها: ظل رسول الله ﷺ صائما ثم طواه، ثم ظل صائما ثم طواه، ثم ظل صائما ثم طواه، ثم قال: "يَا عَائِشَةُ إِنَّ الدُّنْيَا لَا تَنْبَغِي لِمُحَمَّدٍ وَلَا لِآلِ مُحَمَّدٍ، يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى مَكْرُوهِهَا، وَالصَّبْرِ عَنْ مَحْبُوبِهَا، ثُمَّ لَمْ يَرْضَ مِنِّي إِلَّا أَنْ يُكَلِّفَنِي مَا كَلَّفَهُمْ، فَقَالَ: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ الأحقاف: ٣٥، وَإِنِّي لَأَصْبِرُ كَمَا صَبَرُوا جَهْدِي، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله"[١].

وقد اختلف أهل العلم في أولي العزم من الرسل على أقوال، فقيل: هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا محمد عليهم الصلاة والسلام، وقيل: هم نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويونس وأيوب ونبينا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقيل: كل الرسل كانوا أولي عزم، لم يتخذ الله رسولا إلا كان ذا عزم[٢] والقول الأول هو القول الأشهر[٣].

فأولو العزم من الرسل كلهم صبروا على القيام بأمر الله، والانتهاء إلى طاعته... ولم ينههم عن النفوذ لأمره ما نالهم فيه من شدة، وهم الذين امتحنوا في ذات الله في الدنيا بالمحن، فلم تزدهم المحن إلا جدا في أمر الله[٤] ولم ييأسوا عن تحقيق أهدافهم، وإدراك غاياتهم.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج٤، ص: ١٧٤.

(٢) ابن جرير الطبري، مصدر سابق، ج١١، ص: ٣٠٣.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج٤، ص: ١٧٤، ومحمد أحمد الأبشيهي، مرجع سابق، ج٢، ص: ٦٣.

(٤) ابن جرير الطبري، مصدر سابق، ج١١، ص: ٣٠٢.

وقفة مع ثبات نوح عليه السلام على المبدأ:

لنوح عليه السلام في الصبر على الدعوة والثبات على المبدأ أروع الشواهد وأنبل المواقف. فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، يدعوهم إلى الله تعالى ليلا ونهار، سرا وجهارا، فما آمن معه منهم إلا قليل، ومع ذلك لم يمنعه إعراضهم من الاستمرار في دعوتهم إلى الله، كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ ﴾ [نوح]، فعلى الرغم من تنوعه لأساليب الدعوة إلى الله، لم يجد منهم إلا الكنود والإعراض والاستهزاء. فلما قاسى هذه الشدائد، وعانى ما عانى منهم، أعقبه الله تعالى الخلاص من تلك الأهوال بالتمكين له في الأرض، وجعله شبه آدم عليه الصلاة والسلام؛ لأنه أنشأ منه ثانيا جميع البشر، كما أنشأهم أول مرة من آدم، فلا ولد لآدم إلا من نوح عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝٧٦ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ۝٧٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝٧٨ ﴾ [الصافات][1].

وقفة مع توكّل إبراهيم عليه السلام وثقته في نصر الله:

لَمّا حطّم إبراهيم عليه السلام الأصنام التي كان يعبدها قومه وكسّرها، اجتمعت كلمتهم على أن ينتقموا لآلهتهم منه، ويحرقوه بالنار، فاحتطبوا وأضرموا النار في الحطب لإحراق إبراهيم عليه السلام، فلما ارتفع لهيب النار واتقد، رفعوا إبراهيم في المنجنيق ليلقوه فيها. موقف رهيب، يسبب اليأس، ويدعو إلى الإحباط، ولكنه عليه السلام عالج ذلك بالدعاء وحسن التوكل على الله، فقال: حسبي الله ونعم الوكيل[2]، وحينها نزل جبريل عليه السلام

(١) أبو علي التنوخي، مرجع سابق، ص: ١٥ – ١٦، ويوسف القرضاوي، الصبر في القرآن، مرجع سابق، ص: ٧٤.

(٢) روى البخاري عن ابن عباس قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: «إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» [آل عمران: ١٧٣]. صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب التفسير، باب: إن

وقال: يا إبراهيم: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، فقال جبريل: سل ربك، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فقال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فكانت كما أراد الله، وبطل كيد الكافرين، ونجا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، بسبب توكله ووثوقه بنصر الله(١).

وقفة مع صبر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وإيمانهما وتسليمهما لأمر الله:

ولما نجا إبراهيم عليه السلام من كيد الكفار ومؤامرتهم عليه، ابتلاه الله تعالى بمحنة أخرى، وهي أمره بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام. فرأى في المنام أنه يذبحه، ورؤيا الأنبياء حق، ففهم بالإشارة المطلوب منه، فعرض على ابنه الأمر؛ ليسمع مقولته، فما كان من الابن البار إلا الاستسلام والإذعان لأمر الله. وقد ورد تفصيل تلك المحنة في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨﴾ [الصافات]، إن في هذه المحنة من دواعي الإحباط ما يعجز عن مجابهته الإنسان من حيث هو إنسان، وهي محنة فريدة من نوعها، فلا بلاء أعظم من بلاء شهد الله (جل ثناؤه) أنه بلاء مبين، وهو تكليف إنسان أن يتقرب إلى الله بذبح ابنه، وتكليفه هو والمذبوح أن يؤمنا ويصبرا ويسلما ويحتسبا، فلما أدّيا ما كلّفا به من ذلك، وعلم الله (جل جلاله) منهما صدق الإيمان، والصبر والتسليم والإذعان، فدى الابن بذبح عظيم، وهو كبش أملح من الجنة، وخلّصهما من تلك الشدائد الهائلة، ومن ضيق الإحباط النفسي(٢).

وقفة مع صبر موسى عليه السلام وعدم تأثره بجفاء قومه:

لقي موسى (عليه الصلاة والسلام) من بني إسرائيل من تصرفاتهم السيئة ما يدعو

الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم... الآية. الحديث: ٤٢٨٧، ج٤، ص: ١٦٦٢.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ج١، ص: ١٥٠ – ١٥١، ومحمد أحمد الأبشيهي، مرجع سابق، ج٢، ص: ٦٣.

(٢) أبو علي التنوخي، مرجع سابق، ص: ١٤.

إلى اليأس عن هدايتهم، والكف عن دعوتهم، ولكنه عليه السلام كان صابرا في التعامل معهم، لم ييأس ولم يصبه الإحباط عن دعوتهم إلى الله. من تلك التصرفات أنهم لما أغرق الله فرعون وجاوزوا البحر ﴿فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف]. ومنها أنهم حين قال لهم موسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ البقرة، إلى آخر الآيات. ومنها أن الله لما أكرمهم في التيه، وظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، قالوا بكل صفاقة وتبجح: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ﴾ [البقرة: ٦١]. هذه بعض التصرفات السيئة التي يضيق بمثلها صدر الكريم، وينفد عندها صبر الحليم، وييأس لها الداعية عن الإصلاح. ومع ذلك فقد واجه موسى عليه السلام كل هذه المواقف بصبر وعدم تأثر بها، ولم ييأس عن دعوتهم. فلا غرو أن نجد نبينا محمدا ﷺ يستحضر هذه المواقف الناجحة حينما سمع من بعض المنافقين الأذى والنقد الذاتي، ويقول: "يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ"(١).

وقفة مع ثبات عيسى عليه السلام:

قد واجه عيسى – مثل ما واجه أخاه موسى عليهما الصلاة والسلام – من التكذيب والعصيان والرفض والجمود على الرسوم والشكليات، دون استعداد للرقي إلى الأفق الروحي، ومع ذلك لم ييأس عليه السلام من دعوتهم، وتبيين طريق الحق لهم، بل استمرّ في وعظهم بأبلغ المواعظ. ولما رأى قومه ثباته على المبدأ، وصبره على أذاهم، أخذوا يكيدون له كيدا، ويمكرون به، ويتآمرون عليه، وأخيرا قرّروا قتله وصلبه عليه السلام، ولكن الله تعالى أحبط مكرهم، ونجّى نبيه من شرهم وكيدهم، كما جاء ذكر ذلك في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ

(١) يوسف القرضاوي، الصبر في القرآن، مرجع سابق، ص: ٧٧ – ٧٩، والحديث سبق تخريجه، راجع ص: ٢٣٦.

مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء][1].

المطلب الثالث

وقفة مع قصص بعض الرسل الوارد ذكرهم في القرآن

ورد في القرآن الكريم من أخبار الرسل الكرام – إضافة إلى ما سبق من قصص أولي العزم منهم – نماذج رائعة، ومواقف ناجحة، يستعان بالاقتداء بها وتطبيقيها في معالجة اليأس، والقضاء على الإحباط النفسي. ويمكن إجمال تلك المواقف لطائفة منهم فيما يلي:

وقفة مع صبر يعقوب عليه السلام ورجائه:

ابتلي يعقوب عليه السلام بفراق أحب أبنائه إليه: يوسف عليه السلام، ثم امتحن ثانيا بفراق شقيق يوسف الأصغر: بنيامين. وفي كلتا المحنتين يعالج يعقوب عليه السلام مصابه بالصبر الجميل، والرجاء من الله أن يعقبه فرجا من شدته. أما مصابه بيوسف فهو أعظم مصيبة أصيب بها؛ لأنه أحبه أشد الحب، ولأن فراقه جاء نتيجة مؤامرة إخوته عليه، وأنه كذلك علم بكذبهم، ومع ذلك تجمّل صابرا وقال: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف]. وليس مصابه بفراق الولد الثاني أيضا بأمر هين؛ لأن الأسى يبعث الأسى، والحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن، والقدح إذا وقع على القدح كان أوجع[2]. ومع ذلك أيضا خرجت من فيه كلمات مليئة بالصبر والرجاء، فقال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يوسف]، فلم يكن صبره (عليه الصلاة والسلام) صبر اليائس القنوط، إنما هو صبر الآمل الراجي في فضل الله، الواثق بأن بعد العسر يسرا، وبعد الفرقة اجتماعا، ويظهر ذلك في قوله: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ ﴾[3] وقد كانت

(١) المرجع السابق، ص: ٧٩.

(٢) عماد زهير حافظ، القَصَص القرآني بين الآباء والأبناء، دمشق، دار القلم، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص: ٢٠٢.

(٣)- يوسف القرضاوي، الصبر في القرآن، مرجع سابق، ٦٦.

عاقبة هذا الصبر أن فرّج الله شدته، ونفّس كربته، وحقّق رجاءه، فأتاه بأبنائه جميعا، وتمّ اجتماع الشمل، والعفو وغفران الذنب.

وقفة مع توكّل هود عليه السلام وثباته على المبدأ:

وفي قصة هود عليه الصلاة والسلام مثلٌ رائع للتوكّل والثبات على المبدأ، فقد دعا قومه إلى عبادة الله، وترك عبادة الأصنام، فامتنعوا عن إجابته، وعن اتباع الدين الحق، وما كان جوابهم إلا أن قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود]، فهذا تأييس منهم لنبيهم عليه السلام، وكانوا – لشدة تمسّكهم بعبادة آلهتهم، وظنّهم أنها تنفع وتضر – هدّدوا نبيّهم بها، وقالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤]، لكن هودا عليه السلام لم يلق لقولهم بالا، ولم يعبأ به؛ لأنه واثق غاية الوثوق بالله، ومتوكّل شديد التوكّل عليه، ولذا فلا يصيبه منهم، ولا من آلهتهم أذى، فقال لهم: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود]، أي لو اجتمعتم جميعا على الإيقاع بي – والله لم يسلطكم عليّ – فلن تقدروا على ذلك، فإن سلطكم فلحكمة أرادها؛ لأن أفعاله لا تخرج عن الصراط المستقيم الذي يحمد ويثنى عليه بها، فهذا القول من هود عليه السلام فيه حقيقة التوكّل على الله والثبات على المبدأ، فلثباته على المبدأ الذي آمن به، شرح لهم حقيقة ما في ضميره، بأنهم وإن أعرضوا عنه لم يضره إعراضهم، ولن يضر الله شيئا، لأنه تعالى سيأتي بقوم آخرين يؤمنون بهذه الرسالة، فهو عليه السلام لم ييأس من نجاح الدعوة، ولم يصبه إعراضهم بالإحباط، بل قال لهم: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ [هود: ٥٧]، فكانت نتيجة ذلك أن نجاه الله ومن آمن به، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٨][1].

وقفة مع دعاء يونس عليه السلام وتسبيحه:

اقتصّ الله علينا في عدة مواضع من كتابه العزيز من قصة يونس عليه السلام، وفيها عبر

(١) عبد الرحمن السعدي، مرجع سابق، ص: ٣٨٤، بتصرف.

ومواقف يقتدى بها في علاج اليأس والإحباط، وهي ما ذكر من التقام الحوت له، وذلك أنه عليه السلام لما دعا قومه ولم يؤمنوا، غضب وهرب إلى السفينة ليركبها، ويستريح منهم. وقيل: إن سبب هروبه أنه أخبرهم بأن العذاب يأتيهم في يوم معيّن حسبما أعلمه الله، فلما رأى قومه مخايل العذاب آمنوا، فرفع الله عنهم العذاب فخاف أن ينسبوه إلى الكذب، فهرب، ولما ركب السفينة وقفت ولم تجر، فقال من في السفينة: إنما وقفت من حدث فنقترع لنرى على من تخرج القرعة فنطرحه، فاقترعوا، فخرجت القرعة على يونس عليه السلام، فطرحوه في البحر، فالتقمه الحوت[1] كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات]، إن هذا لموقف عصيب، يثير الغم والأسى، ويدعو إلى الإحباط واليأس، لولا أنه عليه السلام كان متوقّيا بالعبادة والتسبيح قبل الحادثة ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ الصافات، ولولا أنه أيضا توجّه إلى الله بالدعاء للتخلص منها حالة حدوثها، ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء]، فاستجاب الله دعاءه، وكشف عنه كربته، كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء]. وقد أفاد يونس البشرية، وأتحفها بهذا الدعاء الذي دعا به في بطن الحوت، فقد روي عن النبي ﷺ قوله: "دَعْوَةُ ذِي النُّونِ الَّتِي دَعَا بِهَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: {لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} إِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ اسْتَجَابَ لَهُ فِيهَا"[2].

وقفة مع رجاء زكريا عليه السلام ودعائه:

احتاج زكريا عليه السلام إلى أن يُرزق ولدا صالحا، لَمّا خشي إن ورثه الموالي من بعده أن لا يحسنوا خلافته في أمته، فيبدّلوا عليهم دينهم. وجاءت هذه الحاجة حين بلوغه من الكبر عتيا، وكانت امرأته عاقرا، فكل دواعي اليأس عن الولادة متوفّرة، لكنه عليه السلام لم

(١) ابن جزي الكلبي، مرجع سابق، ج٢، ص: ٢٤١ – ٢٤٢.

(٢) أخرجه الترمذي عن سعد في سننه، مرجع سابق، كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، الحديث: ٣٥٠٥، ج٥، ص: ٥٢٩، وصححه الحاكم في المستدرك، الحديث: ٤١٢١، ج٢، ص: ٦٣٧.

ييأس لمعرفته التامة أنه يتعامل مع رب الأرباب، مجيب الدعوات. فقدرته (سبحانه وتعالى) خارقة للعادات، فدعا الله أن يرزقه ولدا يرثه ويرث من آل يعقوب. وناداه قائلا: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ الأنبياء، وكان رجاؤه عليه السلام في إجابة هذا الدعاء قويا، لاسيما أنه عليه السلام قد رأى إكرام الله لمريم بنت عمران (عليها السلام) بأمر خارق للعادات، وهو أنه كان يجد عندها رزقا من الله: يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ آل عمران فأجاب الله دعاءه، وبشّره بمولود فيه كل الصفات المحمودة، كما قال تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران]. ومن الملاحظ أن زكريا عليه السلام التزم بمجموعة من الآداب في دعائه هذا، من إخفاء الصوت، والتضرع والانكسار، وذكر لله عجزه وضعفه، وأظهر له خضوعه، ثم ذكر نعمه التي لا تحصى عليه، بأنه يتفضّل دائما بإجابة دعواته، ثم دعاه بلفظ يا رب. وهذه الآداب مجموعة في قوله تعالى: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾ [مريم][1].

وقفة مع صبر أيوب عليه السلام:

امتُحن أيوب عليه السلام بالأسقام واللأواء، وأصيب بفقد الأهل، وعظمة المصيبة، وتفاقم المحنة، ومع ذلك كان صابرا محتسبا، ولم ييأس من الشفاء، بل توجّه إلى الله – سبحانه وتعالى – بالدعاء، كما قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ

(١) عماد زهير حافظ، مرجع سابق، ص: ٣٦٣ – ٣٧٩.

أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص]، فهذا مدح حقيقي من الله له باتصافه بالصبر[1].

(١) يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص: ٦٣ – ٦٥.

obeikan.com

المبحث الثاني

وقفات مع قصص أتباع الرسل والصالحين

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: وقفة مع قصص أصحاب النبي ﷺ

المطلب الثاني: وقفة مع قصص أصحاب بعض الأنبياء عليهم السلام

المطلب الثالث: وقفة مع قصص الصالحين.

obeikan.com

المطلب الأول

وقفة مع قصص أصحاب النبي ﷺ

للصحابة الكرام في معالجة الأمراض النفسية بتعاليم القرآن الكريم مواقف تستحق العناية، ويتأكد الاقتداء بهم فيها، فهم أفضل الناس وأكثرهم تطبيقا للتوجيهات القرآنية بعد رسول الله ﷺ، ومن مواقفهم الناجحة في معالجة المشكلات النفسية ما يأتي:

وقفة مع قوة إيمان الصحابة وتوكّلهم ﷺ:

استعمل الصحابة ﷺ الإيمان القوي والتوكّل التام في علاج كثير من المشكلات النفسية والمواقف الإحباطية، من ذلك ما واجهوه من الحصار العسكري العظيم الذي ضربه الكفار عليهم في غزوة الأحزاب، والذي ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ الأحزاب، فمع هذا الحصار وقوة أثره في المسلمين، ومع أن جميع أهل الأرض في ذلك الوقت مقاطعوهم سياسة واقتصادا، فقد عالجوا ذلك، وحلوا تلك المشكلة بصدق التوكّل على الله والتوجه إليه، كما بيّنه جل وعلا في قوله: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ الأحزاب. فهذا الإيمان الكامل، وهذا التسليم العظيم لله (جل وعلا) ثقة به، وتوكلا عليه، هو سبب حل هذه المشكلة العظمى، وقد صرّح الله تعالى بنتيجة هذا العلاج بقوله: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب][1].

وهذا يعني أن اليأس الذي أصيب به بعض المسلمين اليوم بسبب الضعف والعجز، وخوفهم الشديد من عدَدِ غير المسلمين وعدتهم، وهولهم من تقدّمهم التقني والعسكري، يكمن علاج ذلك كله في التوكل على الله، التوكل الحقيقي الممزوج بقوة

(١) محمد الأمين الشنقيطي، مرجع سابق، ج٢، ص: ٢٣٩ – ٢٤٠.

الإيمان. يقول الشنقيطي[١]: من هدي القرآن حل مشكلة ضعف المسلمين في أقطار الدنيا في العدد والعدة عن مقاومة الكفار، فبيّن القرآن الكريم أن علاج ذلك يكون بصدق التوجّه إلى الله تعالى، وقوة الإيمان به، والتوكّل عليه؛ لأن الله قوي عزيز، قاهر لكل شيء، فمن كان من حزبه على الحقيقة لا يمكن أن يغلبه الكفار ولو بلغوا من القوة ما بلغوا[٢].

وقفة مع علوّ همة الصحابة ﷺ:

من أهم المواقف التي أبلى الصحابة الكرام فيها بلاء حسنا، مواقفهم الناجحة في علو الهمة. فقد حققوا إنجازات كبيرة بعلو همتهم، وصدق عزيمتهم، وأتوا بما لم تأت به أمة قبلهم، لذا دهش المؤرخون للسرعة التي أقاموا بها دولتهم، وللسرعة التي انهارت بها أمامهم الإمبراطوريتان العظيمتان في ذلك الوقت، ولم يدرك الكثير منهم سر عظمة هذه الأمة الناشئة، الذي يكمن في المدد الرباني لهؤلاء المجاهدين، ليس فقط بالإمداد بالملائكة الذين يثبتونهم في مواقف مختلفة، وإنما أيضا بعلو همتهم، وإمداد الله إياهم بفاهيم وقيم ومقومات أهّلتهم لقيادة البشرية، وانتزاع عجلة القيادة من قيم هابطة، ومفاهيم متخلفة، وعقائد فاسدة، إلى مبادئ قيمة، ومفاهيم وعقائد راقية وصحيحة[٣].

وقفة مع علو همة أبي بكر ﷺ:

لَمّا تمّ تعيين أبي بكر ﷺ خليفة للمسلمين، وتقلّد الحكم بعد وفاة رسول الله ﷺ حصلت فتنتان عظيمتان: فتنة المرتدين من جانب، وفتنة مانعي الزكاة من جانب آخر، ولا شك أن هاتين الفتنتين كافيتان لإثارة اليأس في القلوب، والإحباط في النفوس، ولكن الصديق ﷺ استطاع أن يعالج هاتين المشكلتين بعلو همته، وعزيمته الصادقة في

(١) الشنقيطي: هو العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، بحر العلوم، اللغوي الأصولي الفقيه، الأديب المفسر، صاحب أضواء البيان، درّس في المسجد النبوي، وكليتي الشريعة واللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف، كذا ترجم له تلميذه عطية محمد سالم في مقدمة الأضواء، ج١، ص: ٣.

(٢) محمد الأمين الشنقيطي، مرجع سابق، ج٢، ص: ٢٤٠.

(٣) محمد أحمد إسماعيل المقدم، مرجع سابق، ص: ٨١.

أقل من سنتين، فقضى على فتنة مانعي الزكاة، وأخضعهم لأحكام الإسلام، وخرج من دائرة حصار المرتدين، ولم يمت إلا وجيوشه تحاصر أعظم إمبراطوريتين في ذلك الوقت، مع أن بعض كبار الصحابة منعوه عن قتال مانعي الزكاة، وعن حرب المرتدين، لظنهم أنه لا يستطيع أن يقوم في وجه العرب، وهذا بدوره يكفي لتأجيج نار الإحباط في النفس، ولكن همته العالية أبت عليه ذلك، واستطاع أن ينجز ما ظنه الناس خيالا لا يُنجز(١).

وقفة مع تأثر عمر ﷺ بالقرآن وعلاجه هزيمته النفسية به:

يوم نعي النبي ﷺ إلى المسلمين، جمحت نفس عمر ﷺ، وهاله الأمر، وأصيب بالإحباط النفسي، فأنكر أن ينعى، وأبى أن يسمع صوتا بين المسلمين يزعم أن محمدا قد مات، لعُظم ما به، ولم يجد ما يسكن نفسه، ويُطَمئن ضميره، إلا سماع تلاوة القرآن، وذلك حين أقبل أبو بكر ﷺ وئيدا صامتا لا يكلم أحدا، وتيمّم النبي ﷺ وهو مغشى بالثوب، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه وقبّله، وبكى، ثم أحسّ صولة عمر وهو يكلم الناس، فخرج إليهم فقال: اجلس يا عمر، ثم كلّم المسلمين بكلام السماء قائلا: "أما بعد، فمن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت... ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران]، فكانت تلاوة هذه الآية العلاج الناجع، والدواء الشافي لتسكين جموح نفس عمر ﷺ، فأهوى إلى الأرض وأناب، وكأنه والمسلمين معه ما علموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها عليهم أبو بكر تلك الساعة(٢).

ولم يكن هذا الموقف لعمر فريدا من نوعه، بل كان الاستشفاء والتأثر بالقرآن الكريم سجيته وطبعه الذي تطبع عليه. فقد روي أن بلالا ﷺ ذهب إليه مستأذنا، فقال له الخادم: إنه نام، فسأله: كيف تجدون عمر؟ قال: "خير الناس إلا أنه إذا غضب فهو

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ج٦، ص: ٣٠٣ – ٣٢٥، ومحمد موسى الشريف، مرجع سابق، ص: ٣٥.

(٢) عباس محمود العقاد، عبقرية عمر، صيدا – بيروت، المكتبة العصرية، ص: ٥٩.

أمر عظيم"، قال بلال: "لو كنت عنده إذ غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه"[١].

وقفة مع محاربة عمر ﷺ للبطالة والكسل بالجد والاجتهاد:

كان عمر ﷺ دءوبًا في عمله ليل نهار، قليل النوم، فقال له أهله يومًا: ألا تنام؟ قال: "لو نمت في الليل ضاعت نفسي، ولو نمت في النهار ضاعت رعيتي"، وهذه الهمة العالية التي يتمتع بها أمير المؤمنين أكسبته قدرة على محاربة البطالة، والقضاء على الكسل في المجتمع الإسلامي بكل وسيلة ممكنة، فقد روي أنه أخرج شبابا سكنوا المسجد، فضربهم وقال: "اخرجوا واطلبوا الرزق، فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة". إنما فعل عمر ذلك لمعرفته التامة أن مع الفراغ والعطالة: الوسواس والكدر والمرض النفسي، والانهيار العصبي والهم والغم واليأس والإحباط، وأن مع العمل والنشاط: السرور والحبور والسعادة، وسوف ينتهي عندنا القلق والهم واليأس والإحباط وسائر الأمراض النفسية والعقلية إذا قام كل بدوره في الحياة[٢].

وقفة مع ثبات الثلاثة الذين خُلِّفوا عن غزوة تبوك وتوبتهم:

ورد في القرآن الكريم من مواقف الصحابة في معالجة المشكلات النفسية، ذكر قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بدون عذر، وهم كعب بن مالك[٣]، ومرارة بن الربيع[٤]، وهلال بن أمية[٥] فكانت بليتهم عظيمة، وأصبحوا لشدة مصابهم في حالة

(١) المرجع نفسه، ص: ٦٠.

(٢) عائض القرني، مرجع سابق، ص: ٢٨٥ – ٢٨٦.

(٣) هو كعب بن مالك بن أبي كعب الأنصاري السلمي أبو عبد الله الشاعر المشهور ، شهد العقبة وبايع بها ، وتخلف عن بدر وشهد أُحُداً وما بعدها وتخلف في غزوة تبوك، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، مات أيام قتل علي بن أبي طالب ، وقيل غير ذلك. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، مصدر سابق، ج٣، ص:٣٠٢ .

(٤) هو مرارة بن الربيع الأنصاري الأوسي، صحابي مشهور، شهد بدراً على الصحيح ، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ، الإصابة، مصدر سابق : ج٣، ص:٣٩٦ .

(٥) هو هلال بن أمية بن عامر بن قيس الأنصاري ، شهد بدرا وما بعدها وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، الإصابة، مصدر سابق، ج٣، ص:٦٠٦ .

نفسية مضطربة، وفي إحباط نفسي شديد. ومما أصابهم من القلق، أن الرسول نهى عن كلامهم، فاجتنبهم الناس وتغيروا لهم. يقول كعب بن مالك: "حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلّمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه برد السلام عليّ أم لا، ثم أصلي قريبا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني". فلما اشتد الأمر على كعب ذهب إلى عمّه فسلّم عليه ولم يرد عليه السلام، وهذه مصيبة أخرى، وبينما هو في تلك الحالة النفسية، إذ جاءه رسول من ملك غسان ومعه رسالة فإذا فيها: "أما بعد قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالْحقْ بنا نواسك". ولا شك أن هذا موقف عصيب لولا أن كعبا كان ثابتا مفوضا الأمر إلى الله، ومتوجها إليه بالتوبة والاستغفار، لذا قال: "وهذا أيضا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها". ثم وقع ابتلاء آخر وهو أمر من الرسول ﷺ لهم باعتزال نسائهم، وذلك بعد تمام أربعين يوما. والملاحظ هنا أن هؤلاء الصحابة الكرام لم ييأسوا من توبة الله عليهم في جميع فترات الابتلاء، ولم يصابوا بالإحباط، بل كانوا ثابتين مصرين على التوبة، راجين المغفرة من الله. قال كعب: "فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذَكر الله: قد ضاقت علي نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا..." الحديث [1].

(١) أخرج قصة توبتهم بطولها: البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث كعب بن مالك، انظر: البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك وقول الله ﷻ ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ التوبة: ١١٨، الحديث: ٤٤١٨، ج٣، ص:١٧٦- ١٨٠، وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، الحديث: ٦٩٤٧، ج١٧، ص:٨٩- ٩٩.

وفي ذكر هذه القصة يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ مع رحبها، أي: سعتها لشدة حيرتهم وقلقهم فلا يجدون مكانا يطمئنون إليه ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ قلوبهم للغم والوحشة بتأخير توبتهم فلا يدخلها سرور؛ لأن النبي ﷺ نهى عن الكلام معهم وأمر نساءهم أن يعتزلنهم، ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أيقنوا ﴿أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ لا مفرّ من عذاب الله إلى أحد ﴿إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أنزل توبتهم ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ ليستقيموا على التوبة فيما يستقبل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ على من تاب ﴿ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ التوبة، بعد التوبة، يجعل السيئات حسنات(١).

المطلب الثاني

وقفة مع قصص أصحاب بعض الأنبياء عليهم السلام

كما كان لصحابة نبينا ﷺ تلك المواقف الناجحة في القضاء على الأمراض النفسية بالتعليمات والتوجيهات القرآنية، فقد كان لأصحاب بقية الأنبياء وأتباعهم مواقف شبيهة بمواقف الصحابة، بل أن من تلك المواقف ما أُمر الصحابة بالاقتداء بهم فيها، كما في قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ البقرة، وفيما يلي وقفات مع قصص بعضهم:

وقفة مع صبر الربيين ودعائهم وثباتهم:

قصّ الله علينا في كتابه العزيز ما حدث لكثير من أتباع الرسل من دواعي اليأس والإحباط في سبيل نشر الدين والجهاد، ولكنهم عالجوا تلك المواقف باستخدام الصبر والدعاء، والثبات على المبدأ إلى أن تحقق لهم النصر، وما يئسوا وما استكانوا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾ [آل عمران].

---

(١) عبد الله بن فودي، كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن، تحقيق: ثاني موسى أياغي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة إفريقيا العالمية، ٢٠٠٣م، ص: ٤٥٣ – ٤٥٤.

أي هناك جموع كثيرة، من أتباع الأنبياء وأصحابهم، شاركوا الأنبياء في الجهاد في سبيل الله، فما ضعفت آراؤهم وبصائرهم عن مباشرة القتال بأجسامهم لأجل الجراح وقتل الأنبياء وأصحابهم وما خضعوا لعدوهم، ولم ييأسوا من نجاح الدعوة، ولم يصبهم الإحباط في سبيل تحقيق أهدافهم. بل صبروا على البلاء وثبتوا حتى نصرهم الله. وفي قوله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا ﴾ إيذانٌ بأن ما أصابهم لسوء فعلهم وهضمٌ لأنفسهم بالمواظبة على الجهاد. فبسبب هذا الاستغفار والدعاء أيضا، أحسن الله عاقبة أمرهم، وأتحفهم بالغنيمة، وحسن الذكر في الدنيا، وحسن ثواب الآخرة أي: الجنة[1].

وقفة مع توكّل أصحاب شعيب عليه السلام:

لَمَّا دعا نبي الله شعيب قومه إلى الإيمان، وتطبيق أحكام الله وشرائعه في جميع شئون حياتهم، آمنت به طائفة وكفرت طائفة، فكان موقف الذين لم يؤمنوا أن توعّدوا الذين آمنوا مع شعيب بالنفي عن القرية، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه. ولِما كانت الأكثرية الغالبة تتمثل في طائفة الكافرين، فقد يثير هذا الوعيد والتهديد شعورا بالضيق والحرج في نفوس المؤمنين، فيورثهم ذلك إحباطا، إلا أنهم مع ذلك كله، قد عالجوا الموقف بالتوكّل على الله وصدق التوجّه إليه بالدعاء والإنابة، فقال شعيب عليه السلام للفئة الكافرة: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف]، أي أأنتم تنفوننا عن قريتنا، أو تُكرهوننا على الرجوع إلى ملتكم ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه، فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أندادا، وما نحن بفاعلين ذلك، لأجل أننا توكّلنا على الله في جميع أمورنا، ما نأتي منها وما نذر. ثم اختتموا المحاورة بالدعاء قائلين: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ أي: احكم بيننا وبينهم، وانصرنا عليهم، فإنك العادل

(1)- المرجع السابق، ص: ١٦٤.

الذي لا يجور أبدا[1] فكانت نتيجة هذا الدعاء وهذا التوكل ما قصه الله علينا في سورة هود في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود].

وقفة مع صبر أتباع موسى عليه السلام:

اشتكى أتباع موسى عليه السلام إليه ما سمعوه من فرعون الذي توعّدهم بالتعذيب والقتل والأذى، فهذا التوعّد أمرٌ مثير للقلق والإحباط النفسي، لذا أرشدهم موسى عليه السلام إلى استعمال أنجع الأدوية لذلك، وهو الدعاء والصبر، فقال لهم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف]، فهذا تسكين لهم وتشجيع وتسلية، فإنهم إن طبقوا ما أرشدهم إليه، فلا اعتبار بمقالة فرعون؛ لأن العاقبة للمتقين، وفرعون وقومه ليسوا على شيء من التقوى. ثم اشتكوا إلى موسى في المرة الثانية و﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف]، ففي الآية إرشاد آخر من موسى عليه السلام لقومه على الثبات والرجاء لما رأى أنهم لم يتسلّوا بما أمرهم به أول مرة. فلما امتثلوا ما أمرهم به، وصبروا واستعانوا بالله، وثبتوا على ما هم عليه، جاءهم النصر، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف]، أي أن الله تعالى نصر بني إسرائيل على عدوهم، ومكّنهم في الأرض بسبب صبرهم على دينهم وأذى قومهم، لذا قيل: إذا قابل الناس البلاء بمثله وكلهم الله إليه، وإذا قابلوه بالصبر أتاهم الله بالفرج[2].

وقفة مع لجوء ثلاثة نفر من بني إسرائيل إلى الدعاء وتوسلهم بالأعمال الصالحة:

ورد في الحديث الشريف أنه: " انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوُا

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج٢، ص: ٢٢٢.

(٢) عبد الله بن فودي، ضياء التأويل، مرجع سابق، ج٢، ص: ٢٤ – ٢٦.

الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ فَقَالُوا إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمُ اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلاً ، وَلاَ مَالاً فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً ، أَوْ مَالاً فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ[1] عِنْدَ قَدَمِي، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَقَالَ الآخَرُ اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِئَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ لاَ أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهْيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَقَالَ الثَّالِثُ اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي فَقُلْتُ لَهُ كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللهِ لاَ تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ"[2].

في هذا الحديث دلالة واضحة على استعمال نوعين من الأدوية القرآنية لمعالجة المشكلات النفسية، وهما: الدعاء والأعمال الصالحة، فقد استعمل هؤلاء النفر الثلاثة

(١) يتضاغون: يصيحون من الجوع.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمر في صحيحه، مصدر سابق، كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرا فترك أجره... الحديث: ٢١٥٢، ج٢، ص: ٧٩٣، ومسلم في صحيحه، مصدر سابق، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، الحديث: ٢٧٤٣، ج٤، ص: ٢٠٩٩.

هذين النوعين من العلاج، وقضوا على ما حلّ بهم من الإحباط النفسي إبان انسداد الصخرة للغار الذي هم فيه، فأجاب الله دعاءهم، وأتاهم الفرج بعد الشدة.

المطلب الثالث

وقفة مع قصص الصالحين

حاول عباد الله الصالحون خلال القرون تطبيق التوجيهات القرآنية لعلاج كثير مما يعرض عليهم من المشكلات النفسية، ابتداء من التابعين (رضوان الله عليهم) إلى من اقتفى أثرهم، واهتدى بهديهم في عصرنا الراهن، ولما طبّق هؤلاء الأبطال ما أرشدهم إليه القرآن فازوا بمآربهم، ونجوا من كل سوء، وقدّموا إنجازات كبيرة، وتحققت لهم أهدافهم. وفي الأسطر التالية بعض النماذج لبعضهم، لأن المجال لا يسع الإتيان بكل النماذج والشواهد في ذلك، فما لا يدرك كله، لا يترك كله.

وقفة مع صبر عروة بن الزبير[1] رحمه الله على البلايا وتذكره الجوانب الإيجابيّة:

لعروة بن الزبير مثلٌ صالح للمؤمن الصابر الراضي، الذي لا يركّز على الجوانب السلبية فقط فيتغافل عن الجوانب الإيجابية، بل كان مقدّرا لمختلف نعم الله عليه، وبهذا الوصف استطاع أن يعالج مشكلتي اليأس والإحباط في حياته، فقد روى الأبشيهي[2] أنه وطئ عظما أو أن رجله وقعت فيها الأكلة، فقرّر الأطباء قطعها لكيلا تسري إلى ساقه كلها، ثم إلى فخذه، وربّما ترقّت إلى الجسد فأكلته، فطابت نفسه بنشرها، فعرضوا عليه أن يشرب مرقدا يغيب عقله حتى لا يحس بالألم ويتمكنوا من قطعها، فقال: "ما أحب أن أغفل عن ذكر الله، وما ظننت أن أحدا يؤمن بالله يشرب

---

(١) هو عروة ابن الزبير بن العوام القرشي، من كبار التابعين، حدّث عن أبيه بشيء يسير لصغره، وعن أمه أسماء، وخالته عائشة، وعلي بن أبي طالب، وغيرهم، مات سنة ٩٣هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج٤، ص: ٤٢١.

(٢) الأبشيهي (٧٩٠ – ٨٥٢هـ = ١٣٨٨ – ١٤٤٨م): هو محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي المحلي بهاء الدين، أبو الفتح: صاحب التصانيف، أشهرها (المستطرف في كل فن مستظرف) في الأدب والأخبار. نسبته إلى أبشويه من قرى الغربية بمصر. خير الدين الزركلي، مرجع سابق، ج٢، ص: ٣٣٢.

شيئا يغيب عقله حتى لا يعرف ربه (عز وجل)، ولكن هلموا فاقطعوها"، فأحمي له المنشار، وقطعت رجله من ركبته وهو صامت لا يتكلم، ولم يعرف أنه اشتكى ولم يتوجّع. وشاء القدر أن يبتلى الرجل على قدر إيمانه، ففي هذه الليلة التي قطعت فيها رجله، سقط ابن له من سطح فمات، وكان أحب أولاده إليه، فدخلوا عليه فعزوه فيه. وما كان رده تجاه هاتين المصيبتين إلا أن قال: "اللهم لك الحمد، كانوا سبعة فأخذت واحدا وأبقيت ستة، وكان لي أطراف أربعة، فأخذت واحدا وأبقيت ثلاثة، فإن كنت أخذت فلقد أعطيت، ولئن كنت قد ابتليت فلقد عافيت"[١]. فاستطاع بهذه الطاقة الروحية وهذا الصبر، وهذا التذكّر للجانب الإيجابي وعدم التركيز على الجانب السلبي أن يعالج هذا المصاب الجلل.

وقفة مع علوّ همة عمر بن عبد العزيز[٢] رحمه الله:

لَمّا عادت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، أنجز – لعلو همته – أشياء يراها كثير من الناس خيالا؛ ذلك لأنه يحمل قلبا لا يعرف اليأس، بل يحاول ويُكرّر المحاولة، وكانت أهمّ أعماله أن حاول إرجاع الناس إلى ما كان عليه الصدر الأول، فحقّق – في سبيل ذلك – كثيرا من النجاح[٣] فلو أنه كان في قلبه يأس من الإصلاح، أو تأثّر بمقالة بعض من يزعم فساد الزمان، لما أنجز شيئا، ولكنه بحسن توفيق الله إياه، ثم بهمته العالية قدّم للمسلمين إنجازات كبيرة، لا تزال تُذكر وتُسطر في صفحات التاريخ.

ولا غرو أن يقدّم الخليفة الزاهد هذا الإنجاز الكبير للأمة، ويحقق تلك الأهداف

---

(١) محمد بن أحمد الأبشيهي، مرجع سابق، ج٢، ص: ٦٧، ويوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، مرجع سابق، ص: ١٦٥.

(٢) هو: عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، الإمام الحافظ، العلامة المجتهد، السيد العابد، خامس الخلفاء الراشدين، أشج بني أمية، ولد سنة إحدى وستين، وقيل سنة: ثلاث وستين، وقيل غير ذلك، وعاش في الخلافة تسعا وثلاثين سنة ونصفا، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأياما، وتوفي سنة إحدى ومائة. أبو عبد الله الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج٥، ص: ١١٤ – ١٤٨.

(٣) محمد موسى الشريف، مرجع سابق، ص: ٣٥.

العظيمة، فهو الذي يحمل بين جنبيه نفسا ذات همة عالية لا ترضى بالدون، فقد روي عنه أنه قال: "إن لي نفسا توّاقة لا تُعطى شيئا إلا تاقت إلى ما هو أعلى منه، وإني لما أعطيت الخلافة تاقت نفسي إلى ما هو أعلى منها وهي الجنة"[١].

وقفة مع تقوى ابن الجوزي (رحمه الله):

يحدّث الإمام ابن الجوزي عن كيفية معالجته لبعض المواقف الإحباطية بالتقوى، فقال (رحمه الله): "ضاق بي أمرٌ أوجب غمًّا لازما دائما، وأخذت أبالغ في الفكر في الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه، فما رأيت طريقا للخلاص، فعرضت لي هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢﴾ [الطلاق]، فعلمت أن التقوى سبب للمخرج من كل غم، فما كان لي إلا أن هممت بتحقيق التقوى، فوجدت المخرج"، ثم قال رحمه الله: "فلا ينبغي لمخلوق أن يتوكّل أو يتسبب أو يتفكّر إلا في طاعة الله تعالى وامتثال أمره، فإن ذلك سبب لفتح كل مرتج"[٢].

وقفة مع استشفاء ابن القيم (رحمه الله) بالقرآن:

يقول الإمام ابن القيم الجوزي: – وهو في صدد الحديث عن شفاء القرآن لأمراض القلوب – "إن القرآن كله شفاء... فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه وتعالى من السماء شفاء قط أعم، ولا أنفع، ولا أعظم في إزالة الداء من القرآن... فلو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيرا عجيبا في الشفاء"، ثم قال: "فقد مكثت في مكة مدة تعتريني أدواء، ولا أجد طبيبا ولا دواء، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيرا عجيبا، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألما، فكان كثير منهم يبرأ سريعا"[٣].

وقفة مع علو همة محمد بن عبد الوهاب[٤] (رحمه الله):

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ج٩، ص: ١٩٢.

(٢) ابن الجوزي، صيد الخاطر، مرجع سابق، ص: ١٩٢.

(٣) ابن القيم، الجواب الكافي، مرجع سابق، ص: ٤ – ٥.

(٤) محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ – ١٢٠٦هـ/ ١٧٠٣ – ١٧٩٢م) مصلح وزعيم ديني، ولد في العيينة بنجد، دعا إلى تنقية الإسلام من الانحرافات عن طريق القرآن والسنة، ناصره محمد بن سعود. له عدة رسائل، منها: "كتاب التوحيد" "كشف الشبهات" "تفسير الفاتحة". فرديناند توتل اليسوعي، مرجع سابق، ص: ٣٦٩. بتصرف.

لَمّا دعا محمد بن عبد الوهاب الناس إلى دين الله انقسم الناس تجاه دعوته إلى فريقين: فريق تابعه وبايعه وعاهده على ما دعا إليه، وفريق عاداه وحاربه وأنكر ذلك، والفريق المنكر هو الأكثر، لكن ابن عبد الوهاب لم ييأس عن الدعوة، ولم يسبب له الإنكار والمحاربة الإحباط النفسي، بل استمر في دعوته، واستطاع بعد جهد كبير أن يجد من يعينه على نشر مبادئ دعوته، فقد فشل في حريملاء، ثم لقي نجاحا مؤقتا في عيينة، ولكنه نجح أخيرا في الدرعية، حيث وقف معه الأمير محمد بن سعود[١] وأبناؤه من بعده، حتى استطاعوا أن يقيموا دولة إسلامية شملت معظم أنحاء الجزيرة العربية[٢] واستطاع في مدة وجيزة إخراج مجتمعه من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد بهمة وعزيمة نادرتين.

وقفة مع علو همة عثمان بن فوديو[٣] (رحمه الله):

برز عثمان بن فوديو على أهل زمانه داعيا لهم إلى تطبيق الدين الصحيح. والناس تجاه دعوته أيضا قسمان: قسم مؤيد له، وقسم آخر منكر ومنتقد لدعوته، ولم يجد حاكما يعينه على نشر دعوته، ومع ذلك لم ييأس، بل تحمّل هو وأتباعه مهمة نشر الدعوة. ففشل في محاولته مع ملك غوبر، مما جعله يعلن الهجرة إلى (غد)، ثم يعلن الجهاد ضد ملوك الهوسا، حتى استطاع أن يفرض سلطانه على جميع ممالك الهوسا، وما جاورها، فصارت بلاد الهوسا بذلك دولة إسلامية أخذت على عاتقها مهمة نشر الإسلام في الممالك الوثنية في غربي إفريقية[٤].

---

(١) محمد بن سعود: هو مؤسس سلالة آل سعود في نجد، من عشيرة مقرن من عنزة، وأمير الدرعية، ساعد محمد بن عبد الوهاب في نشر الدعوة، توفي سنة: ١٧٦٥م. فردينان توتل، مرجع سابق، ص: ٣٠١. بتصرف.

(٢) محمد بن علي بن محمد السكاكر، دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوة الشيخ عثمان بن فودي، دراسة تاريخية مقارنة، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص: ٢٦٦ – ٢٦٧.

(٣) عثمان بن فوديو: هو الشيخ عثمان بن محمد فودي ابن عثمان، زعيم ديني إفريقي، وهو الذي قاد الحركة التجديدية في بلاد حوسا، أخو عبد الله بن فوديو، ولد سنة: ١١٦٨هـ، وتوفي سنة: ١٢٣٢هـ. فردينان توتل، مرجع سابق، ص: ٣٧١. بتصرف.

(٤) محمد بن علي بن محمد السكاكر، مرجع سابق، ص: ٢٦٦ – ٢٦٨.

وقفة مع ثبات عمر المختار[1] (رحمه الله) على المبدأ:

تمكّن البطل العظيم عمر المختار من محاربة الاستعمار الإيطالي، وجيوشه المجهزة بأحدث أسلحة عصره، بالقلة المؤمنة العزلاء، أو شبه العزلاء من جنده: وقف يحارب الطائرة بالحصان، والمدفع بالسيف، واستطاع أن ينزل بأعدائه ضربات موجعة، ولم يرض بالتسليم أبدأ، رغم نفاد قوته المادية كلها، ولكنه ظل يقول للطليان: " لئن كسر المدفع سيفي، لن يكسر الباطل حقي".

وكان مريضا بالحمى، تهزّ رعدتها جسده، وترتعد بها فرائصه، ورغم هذا قال لجنوده: "اربطوني على ظهر جوادي بالحبال حتى لا أتخلف عن القتال معكم".

وحين ظفر به جيش المستعمر، وحكموا عليه بالإعدام، تقبّل الحكم برحابة صدر، وابتسامة ساخرة، وقال له بعضهم – قبل تنفيذ الحكم – : "اطلب العفو ونحن نطلق سراحك، فأجابهم بكل إباء وشمم: "لو أطلقتم سراحي لعدت لمحاربتكم من جديد"[2].

إن هذا هو الثبات الذي لا يعرف اليأس، والصمود الذي لا يعرف الإحباط، فيستسلم للواقع المر، بل كان مصرًّا على مبدئه، موقنا بتحقيق النصر، ولو بعد حياته.

وقفة مع علو همة حسن البنا[3] (رحمه الله):

كانت حياة حسن البنا مثلا جميلا لعلو الهمة، التي قضت على اليأس، وعالجت الإحباط النفسي، ولم تنحن للعجز أو الكسل، ومن أراد أن يعرفه حق المعرفة فليراجع (مذكرات الدعوة والداعية) و(رسائله) التي تفوح بعلو الهمة وقوة الإرادة، وكيف لا يكون كذلك، وقد كان يخاطب أتباعه بقوله: "أحلام الأمس حقائق اليوم، وأحلام اليوم حقائق الغد"، وهو الذي يُحكى عنه قوله: "إن الإسلام عقيدة وعبادة ووطن وجنسية،

---

(١) عمر المختار (١٨٥٨ – ١٩٣١م) زعيم ليبي مجاهد، اشتهر بمقاومته الاستعمار الإيطالي في طرابلس الغرب، ثم اعتُقل من قبل الاستعمار الإيطالي ظلما وعدوانا، وأعدم أخيرا. فردينان توتل، مرجع سابق، ص: ٣٧٩.

(٢) يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، مرجع سابق، ص: ٢٣٧.

(٣) حسن البنا (١٩٠٦ – ١٩٤٩م) هو مؤسس جمعية، "الإخوان المسلمون" في مصر، وداعية مصلح مشهور، أفنى معظم حياته في خدمة الإسلام والمسلمين، اغتيل من جهة معادية للإسلام. فردينان توتل، مرجع سابق، ص: ١٣٧. بتصرف.

ودين ودولة، وروحانية ومصحف وسيف"[١].

وقفة مع معالجة سيد قطب الحيرة والإحباط النفسي بالقرآن الكريم:

يقول سيد قطب (رحمه الله) : "اختفى في قلبي شعور بالحيرة والإحباط النفسي عشته في فترة من فترات الضياع والقلق، قبل أن أحيا في ظلال القرآن، وقبل أن يأخذ الله بيدي إلى ظله الكريم، ذلك الشعور الذي خلعته روحي المتعبة على الكون كله، فعبّرت عنه أقول:

وَقَفَ الْكَوْنُ حَائِرًا أَيْنَ يَمْضِي ... وَلِمَاذَا وَكَيْفَ – لَوْ شَاءَ – يَمْضِي

عَبَثٌ ضَائِعٌ وَجُهْدٌ غَبِينٌ ... وَمَصِيرٌ مُقَنَّعٌ لَيْسَ يُرْضِي

فأنا أعرف اليوم – ولله الحمد والمنة – أنه ليس هناك جهد غبين، فكل جهد مجزي، وليس هناك تعب ضائع، فكل تعب مثمر، وأن المصير مرْضٍ، وأنه بين يدي عادل رحيم، وأنا أشعر اليوم – ولله الحمد والمنة – أن الكون لا يقف تلك الوقفة اليائسة أبدا، فروح الكون تؤمن بربها، وتتجه إليه، وتسبح بحمده، والكون يمضي وفق ناموسه الذي اختاره الله له، في طاعة وفي رضاء وفي تسليم. وهذا كسب ضخم في عالم الشعور وعالم التفكير، كما أنه كسب ضخم في عالم الجسد والأعصاب، فوق ما هو كسب ضخم في جمال العمل والنشاط والتأثر والتأثير، والإيمان – بعد – قوة دافعة، وطاقة مجمعة، فما تكاد حقيقته تستقر في القلب حتى تتحرك لتعمل، ولتحقق ذاتها في الواقع، ولتوائم بين صورتها المضمرة، وصورتها الظاهرة، كما أنها تستولي على مصادر الحركة في الكائن البشري كلها، وتدفعها في الطريق[٢].

(١) محمد موسى الشريف، مرجع سابق، ص: ٣٦.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، عند تفسيره لقوله تعالى: «إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟» الحجرات: ١٥، ج٧، ص: ٥٤٣ – ٥٤٤.

المبحث الثالث

وقفات مع قصص أخرى

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: وقفات مع قصص شخصيات غير إسلامية

المطلب الثاني: وقفات مع قصص فيها العجائب من مجيء الفرج بعد الشدة

obeikan.com

المطلب الأول

وقفات مع قصص شخصيات غير إسلامية

صدرت قصص أخرى عالجت مشكلتي اليأس والإحباط، من شخصيات غير إسلامية، ولا يضرنا صدورها من أناس غير مسلمين، طالما أنهم طبّقوا فيها التوجيهات القرآنية، سواء كان ذلك بشعور أم بدون شعور، المهم أن يتم لهم الحصول على الشفاء النفسي بالعلاج القرآني، فالمعيار هو تطبيقهم وامتثالهم الإرشادات والتعليمات الواردة في القرآن الكريم، لمعالجة المشكلات النفسية. ويمكن في هذا الصدد إيراد الوقفات مع القصص الآتية:

وقفة مع ثبات نابليون[١] في مواقف إحباطية:

اشتهر نابليون بانتصاراته ، وكان سر انتصاراته في المواقف الحربية المختلفة أنه كان بارعا في زرع الثقة في نفوس جيشه، منحّيا عنهم كل صفات اليأس والإحباط، وذلك من خلال رده على كل من قال: "لا أقدر" بـ "جرّبْ" وكل من قال: "لا أدري" بـ "تعلّم"، وكل من قال: "مستحيل" بـ "حاول". بهذه التعليمات والتوجيهات تمكّن هذا الرجل من زرع الثقة في نفوس جيوشه، حتى حقّقوا ما حققوا من انتصارات حربية، ولم يستسلم لليأس ولا للإحباط النفسي[٢].

وقفة مع صمود أبراهام[٣] لنكون وإيمانه بإعادة المحاولة:

كان لأبراهام لنكون موقف رائع في الصمود والإصرار والعزيمة، فهو فشل في الأعمال الحرة عندما كان عمره ٣١ عاما، ثم خسر في الانتخابات عندما كان غي

---

(١) هو نابليون برنابرت (١٧٦٩ – ١٨٢١م) ولد في أجاكسيو من أسرة برنابرت، حقّق انتصارات في مصر وأوسترلتز وبينا وفريدلاند وقاغرام، وغير ذلك ثم تحالفت أوربا ضده، فهُزم في معركة واترلو ١٨١٥ بعد حكم المائة يوم، ثم نفي إلى جزيرة هيلانة والدة الأمبراطور قسطنيطين، حيث توفي هناك. فردينان توتل، مرجع سابق، ص: ٥٦٧، ٦٠٦، بتصرف.

(٢) كفاح فياض، أفكار من ذهب، برين باور مركز تدريب وتطوير، ط١، ٢٠٠١م، ص: ٧٩.

(٣) أبراهام لنكون (١٨٠٩ – ١٨٦٥) رئيس الولايات المتحدة عام: ١٨٦٠، عمل في سبيل إلغاء الرق، وعُرف بمحرر العبيد، قتله أحد المتعصبين للنخاسة. فردينان توتل اليسوعي، المنجد في الأعلام، مرجع سابق، ص: ٤٩٤ – ٤٩٥.

الثانية والثلاثين من عمره، وفشل مرة ثانية في الأعمال الحرة وكان عمره ٣٤، وتوفيت خطيبته عندما كان في الخامسة والثلاثين، وحصل له انهيار عصبي عندما كان في السادسة والثلاثين، ثم خسر في الانتخابات عندما كان في الثامنة والثلاثين، وخسر كذلك في انتخابات مجلس الكونغرس عندما كان في الثالثة والأربعين، وبعدها خسر مرة ثانية عندما كان في السادسة والأربعين، ثم مرة ثالثة عندما كان في الثامنة والأربعين، ثم خسر سباقا للفوز بلقب سناتور عندما كان عمره: ٥٥ عاما، وفشل في أن يكون نائبا للرئيس عندما كان عمره: ٥٦ عاما، وخسر سباقا ثانيا للفوز بوكيل مجلس الشيوخ (سناتور). وعندما أصبح عمره: ٦٠ عاما، أصبح الرئيس الثاني عشر للولايات المتحدة[١] إن هذا الرجل يملك قلبا لا يعرف اليأس ولا الإحباط، بل آمن بأن الثبات على المبدأ والصمود في الأمور سبيل إلى نيل المرام وتحقيق الغايات، وأن الفشل سبيل إلى النجاح، وأن المحاولة والتكرار أمرٌ لا بد منه لتحقيق الأهداف.

وقفة مع صمود نلسون مانديلا وثباته على مبدئه:

لنلسون مانديلا رئيس جنوب إفريقيا سابقا أيضا مثلٌ واقعي في الصمود والثبات على المبدأ، وموقف ناجح لا يزال يروى عبر الأجيال، فقد كان مكافحا جادا في إنقاذ قومه، داعيا إلى التحرر ونبذ الظلم، فسُجن في سبيل ذلك سبعا وعشرين سنة، وهو ينادي بحرية أمته، وخلوص شعبه من القهر والكبت والاستبداد والظلم، وهو مصرٌّ صامد مواصل مستميت، ولم تزل حاله هكذا حتى نال مجده الدنيوي، وأُطلق عن سراحه، وأصبح رئيسا منفذا لجنوب إفريقيا يتقلب منها حيث يشاء، ذلك لأنه عالج اليأس والإحباط النفسي بالثبات والصمود على مبدئه ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [هود][٢].

وقفة مع سعادة كاتب أمريكي بتجربة المسلمين في معالجة اليأس والإحباط:

استوطن كاتب أمريكي[٣] أفريقيا الشمالية الغربية، حيث عاش فيها بين بعض

(١) كفاح فياض، مرجع سابق، ص: ٢٠.

(٢) عائض القرني، مرجع سابق، ص: ٢٠١.

(٣) اسمه: "بودلي" له من المؤلفات ستة عشر كتابا، منها: رياح على الصحراء، و"الرسول"

الأعراب المسلمين، واستفاد من تجربة حياتهم، ومن ممارستهم شعائر الله الروحية، كالصلاة والزكاة والذكر وغيرها. يقول: وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق، فهم بوصفهم مسلمين يؤمنون بالقضاء والقدر، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذا سهلا هينا. فهم لا يتعجلون أمرا، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهم قلقا على أمر. إنهم يؤمنون بأن "ما قدر يكون"، وأن الفرد منهم "لن يصيبه إلا ما كتب الله له"، وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي، كلا!!!

ثم أخذ الكاتب يصف بعض الدروس التي تلقاها منهم قائلا: هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال الصحراء وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط، ورمت بها وادي "الرون" في فرنسا، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، حتى أحسست كأن شعر رأسي يتزعزع من منابته لفرط وطأة الحر، وأحسست من فرط القيظ كأنني مدفوع إلى الجنون ولكن العرب لم يشكو إطلاقا، فقد هزّوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة "قضاء مكتوب". لكنهم ما أن مرت العاصفة، حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير، فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودى القيظ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، فعلوا هذا كله في صمت وهدوء دون أن تبدو من أحدهم شكوى، قال رئيس القبيلة: "لم نفقد الشيء الكثير، فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء، ولكن حمدا لله وشكرا، فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد"[1].

قال الكاتب: وثمة حادثة أخرى، فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوما فانفجر أحد الإطارات، وكان السائق قد نسي استحضار إطار احتياطي، وتولاّني الغضب، وانتابني القلق والهم، وسألت صحبي من الأعراب: "ماذا عسى أن نفعل؟" فذكروني بأن الاندفاع إلى الغضب لن يجدي فتيلا، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش

وغيرها. ديل كارنيجي، مرجع سابق، ص: ٣٠٣.

(١) المرجع نفسه، ص: ٣٠٣ – ٣٠٤.

والحمق، ومن ثم انطلقت بنا السيارة وهي تجري على ثلاث إطارات ليس إلا، ولكنها ما لبثت أن كفت عن السير وعلمت أن البنزين قد نفد. وهناك أيضا لم تثر ثائرة أحد من رفاقي الأعراب، ولا فارقهم هدوءُهم، بل مضوا يذرعون الطريق سيرا على الأقدام، وهم يترنمون بالغناء.

ثم قال: قد أقنعتني الأعوام السبعة التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرحل، أن الملتاثين، ومرضى النفوس، والسكيرين الذين تحفل بهم أمريكا وأوروبا، ما هم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساسا لها، إنني لم أعان شيئا من القلق قط، وأنا أعيش في الصحراء، بل هناك في جنة، وجدت السكينة، والقناعة، والرضا...[1].

إن السر الحقيقي في حصول المسلمين على الشفاء النفسي وطرد اليأس والإحباط، هو هذا الإيمان بالقضاء والقدر، ولولاه لم تسعد حياة، ولا تيسّر أمرٌ.

وقفة مع تجربة أطباء نفسانيين في أمريكا في تهدئة التوتر لمرضاهم بالقرآن:

أُجريت أبحاث على مجموعة من المتطوّعين في الولايات المتحدة عند استماعهم إلى القرآن الكريم، فكانت نتائج الأبحاث مبهرة، فقد تم تسجيل أثر مهدئ لتلاوة القرآن الكريم على نسبة ٩٧% من مجموع الحالات، ورغم وجود نسبة كبيرة من المتطوعين لا يعرفون اللغة العربية، إلا أنه تمّ رصد تغيّرات فسيولوجية لا إدارية عديدة، حدثت في الأجهزة العصبية لهؤلاء المتطوّعين، مما أدّى إلى تخفيف درجة التوتّر لديهم بشكل ملحوظ.

ليس هذا فقط، فلقد تمّت تجربة دقيقة بعمل رسم تخطيطي للدماغ أثناء الاستماع إلى القرآن الكريم، فوجد أنه مع الاستماع إلى كتاب الله، تنتقل الموجات الدماغية من النسق السريع الخاص باليقظة (١٣ – ١٢) موجة/ ثانية، إلى النسق البطيء (٨ – ١٨) موجة ثانية، وهي حالة الهدوء العميق داخل النفس، فشعر غير المتحدثين بالعربيّة بالطمأنينة والراحة والسكينة أثناء الاستماع إلى آيات الذكر الحكيم، على الرغم من عدم فهمهم لمعانيه، وهذا سرٌّ من أسرار القرآن العظيم، ذلك لأن له أثرا على القلوب، وسلطانا على الأفئدة، فكما أثّر على الكفار المتحدّثين بالعربية في عصر

(١) المرجع السابق، ص: ٣٠٤ – ٣٠٥.

نزوله، كذلك أثّر على هؤلاء غير المتحدثين بالعربية بعد نزوله بقرون كثيرة، وأزمنة مديدة. فالقرآن شفاء بدني كما أنه شفاء روحي ونفسي؛ لأنه يعمل على إعادة توازن الجهاز النفسي والعصبي للمؤمن باستمرار قراءته والاستماع إليه وتدبّر معانيه، ولغير المؤمن عند الاستماع والإصغاء إلى تلاوته، كما أنه بالتالي يزيد من مناعة جسم التالي له ويؤمن دفاعاته الداخلية، فيصبح في أمان مستمرّ من اختراقات المرض له بإذن الله، ويقاوم بتلك القوى النورانية المتدفقة الميكروبات والجراثيم التي تهاجم في كل لحظة جسمه بضراوة في موجات متتالية، رغبة في إسقاطه في براثن المرض(١).

وقفة مع همة اليابانيين وجِدِّهم في الأمر:

"أرسلت الدولة اليابانية في بدء حضارتها بعوثا دراسية إلى ألمانيا كما بعثت الأمة الإسلامية بعوثا، ورجعت بعوث اليابان لتحضر أمتها، ورجعت بعوثنا خاوية الوفاض!! فما هو السر؟ لنقرأ هذه القصة حتى نتعرف على الإجابة:

يقول الطالب الياباني "أوساهير" الذي بعثته حكومته للدراسة في ألمانيا: لو أنني اتبعت نصائح أستاذي الألماني الذي ذهبت لأدرس عليه في جامعة هامبورج لما وصلت إلى شيء، كانت حكومتي قد أرسلتني لأدرس أصول الميكانيكا العلمية، كنت أحلم بأن أتعلم كيف أصنع محركًا صغيرًا، كنت أعرف أن لكل صناعة وحدة أساسية أو ما يسمى "موديل" هو أساس الصناعة كلها، فإذا عرفت كيف تصنع وضعت يدك على سر هذه الصناعة كلها، وبدلا من أن يأخذني الأساتذة إلى معمل، أو مركز تدريب عملي، أخذوا يعطونني كتبا لأقرأها، وقرأت حتى عرفت نظريات الميكانيكا كلها، ولكنني ظللت أمام المحرك – أيا كانت قوته – وكأنني أقف أمام لغز لا يحل.

وفي ذات يوم قرأت عن معرض محركات إيطالية الصنع، كان ذلك أول الشهر، وكان معي راتبي، وجدت في المعرض محركا قوة حصانين ثمنه يعادل مرتبي كله،

(١) عبد الحق حميش، مقال بعنوان: العلاج بالقرآن: حقيقته، أهميته، حُكمه، وضوابطه، في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد العاشر، الخرطوم، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أفريقيا العالمية، شعبان: ١٤٢٨هـ/ أغسطس ٢٠٠٧م، ص: ٣٥ – ٣٦، بتصرّف.

فأخرجت الراتب ودفعته، وحملت المحرك وكان ثقيلا جدا، وذهبت إلى حجرتي، ووضعته على المنضدة وجعلت أنظر إليه، وكأني أنظر إلى تاج من الجوهر، وقلت لنفسي: هذا هو سر قوة أوربا، لو استطعت أن أصنع محركا كهذا لغيرت تاريخ اليابان، وطاف بذهني خاطر يقول: إن هذا المحرك يتألف من قطع ذات أشكال وطبائع شتى، مغناطيس كحذوة الحصان، وأسلاك وأذرع دافعة، وعجلات، وتروس وما إلى ذلك، لو أنني استطعت أن أفكك قطع هذا المحرك وأعيد تركيبها بالطريقة نفسها التي ركبوها بها ثم شغلته فاشتغل أكون قد خطوت خطوة نحو سر "موديل" الصناعة الأوربية.

وبحثت في رفوف الكتب التي عندي، حتى عثرت على الرسوم الخاصة بالمحركات، وأخذت ورقا كثيرا، وأتيت بصندوق أدوات العمل، ومضيت أعمل، رسمت المحرك، بعد أن رفعت الغطاء الذي يحمل أجزاءه، ثم جعلت أفككه قطعة قطعة، وكلما فككت قطعة رسمتها على الورقة بغاية الدقة، وأعطيتها رقما، وشيئا فشيئا فككته كله، ثم أعدت تركيبه، وشغلته فاشتغل، كاد قلبي يقف من الفرح، استغرقت العملية ثلاثة أيام، كنت آكل في اليوم وجبة واحدة، ولا أصيب من النوم إلا ما يمكنني من مواصلة العمل.

وحملت النبأ إلى رئيس بعثتنا فقال: حسنا ما فعلت، الآن لا بد أن أختبرك، سآتيك بمحرك متعطل، وعليك أن تفككه، وتكتشف موضع الخطأ وتصححه، وتجعل هذا المحرك العاطل يعمل، وكلفتني هذه العملية عشرة أيام عرفت أثناءها مواضع الخلل، فقد كانت ثلاثا من قطع المحرك بالية متآكلة، صنعت غيرها بيدي، صنعتها بالمطرقة والمبرد.

بعد ذلك قال رئيس البعثة – وكان بمثابة الكاهن يتولى قيادتي روحيا – قال: عليك الآن أن تصنع القطع بنفسك، ثم تركبها محركا، ولكي أستطيع أن أفعل ذلك التحقت بمصانع صهر الحديد، وصهر النحاس، والألمنيوم، بدلا من أعد رسالة الدكتوراه كما أراد مني أساتذتي الألمان، تحوّلت إلى عامل ألبس بذلة زرقاء وأقف صاغرا إلى جانب عامل صهر المعادن، كنت أطيع أوامره كأنه سيد عظيم، حتى كنت أخدمه وقت

الأكل، مع أنني من أسرة ساموراي، ولكنني كنت أخدم اليابان وفي سبيل اليابان يهون كل شيء، قضيت في هذه الدراسات والتدريبات ثماني سنوات، كنت أعمل خلالها ما بين عشرة وخمس عشرة ساعة في اليوم، وبعد انتهاء يوم العمل كنت آخذ نوبة حراسة، وخلال الليل كنت أراجع قواعد كل صناعة على الطبيعة.

وعلم "الميكادو" – الحاكم الياباني – بأمري فأرسل لي من ماله الخاص خمسة آلاف جنيه إنجليزي ذهب اشتريت بها أدوات مصنع محركات كاملة، وأدوات وآلات، وعندما أردت شحنها إلى اليابان كانت النقود قد فرغت، فوضعت راتبي وكل ما ادخرته.

وعندما وصلت إلى "نجازاكي" قيل لي: إن "الميكادو" يريد أن يراني، قلت: لن أستحق مقابلته إلا بعد أن أنشئ مصنع محركات كاملا، استغرق ذلك ٩ سنوات، وفي يوم من الأيام حملت مع مساعدي عشرة محركات (صنع في اليابان)، قطعة قطعة، حملناها إلى القصر، ودخل "الميكادو" وانحنينا نحييه، وابتسم وقال: هذه أعذب موسيقى سمعتها في حياتي، صوت محركات يابانية خالصة، هكذا ملكنا "الموديل" وهو سر قوة الغرب، نقلناه إلى اليابان، نقلنا قوة أوربا إلى اليابان ونقلنا اليابان إلى الغرب"[١].

فلو أن هؤلاء اليابانيين رضوا بالدون، واقتنعوا بالوضع الخسيس، وتقليد الأوربيين، لما استطاعوا أن يتقدموا ولا أن يحرّكوا ساكنا. ولو أنهم يئسوا من الإنجاز الأمثل، وأصابهم الإحباط أمام التطور الهائل الذي يتمتع به الأوربيون، لأصبحوا اليوم في عداد الدول النامية التي لا تستطيع أن تنتج شيئا يستفيد منه العالم إلا أن يستهلكوا ما قدّمت لهم الدول الصناعية فقط، ولو أنهم لم تكن لديهم حماسة عالية، وهمة قوية، وعزيمة صادقة، لجرّهم اليأس والإحباط إلى الآثار الوخيمة التي لا تحمد عقباها، بل تورث صاحبها الندم والخذلان، ولكنهم نجوا من تلك الآثار وفازوا منها، فقدّموا لشعبهم بل للعالم كله ما يحتاج إليه في كل حين، من التقنيات التكنولوجية، والاختراعات الصناعية، والإنتاجات الرائعة.

(١) محمد موسى الشريف، مرجع سابق، ص: ٣٦ – ٤٠، نقلا عن مجلة المجتمع، العدد: ٩٩٨.

المطلب الثاني

وقفات مع قصص فيها العجائب من مجيء الفرج بعد الشدة

هناك قصص وقعت في مختلف المناسبات والمواقف لتعلمنا درسا مفيدا، وهو أنه لا يأس في الحياة، ولا ينبغي للإنسان – مهما صعبت أحواله وكثرت شدته – أن ييأس من النجاح والفرج، لأنه – كما سبق – لا يأتي الفرج في كثير من الأحايين إلا بعد بلوغ القلوب الحناجر، وتحقق جميع دواعي اليأس، وعليه فلا يأس في الحياة. ومن تلك القصص الواقعة ما يأتي:

وقفة مع قصة رجل أصابه شلل وأتاه الشفاء بعد قنوط ويأس:

ذكر المؤرخون أن رجلا أصابه الشلل فأُقعد في بيته، ومرّت عليه سنوات طوال من الملل واليأس والإحباط، وعجز الأطباء عن علاجه، وبلّغوا أهله وأبناءه، وفي ذات يوم نزلت عليه عقرب من سقف منزله، ولم يستطع أن يتحرّك من مكانه، فأتت إلى رأسه، وضربته برأسها ضربات، ولدغته لدغات، فاهتز جسمه من أخمص قدميه إلى مشاش رأسه، وإذا بالحياة تدب في أعضائه، وإذا بالبرء والشفاء يسير في أنحاء جسمه، وينتفض الرجل ويعود نشيطا، ثم يقف على قدميه، ثم يمشي في غرفته، ثم يفتح بابه، ويأتي أهله وأطفاله، فإذا الرجل واقف فما كانوا يصدّقون، وكادوا من الذهول يُصعقون، فأخبرهم الخبر[1] فسبحان الله الذي جعل صحة الأجسام بالعلل، وسبحان الله القائل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى].

وقفة مع قصة رجل نجا من شر الأفعى:

يُحكى أن رجلًا نام يومًا في قبة باردة جدًّا، واستثقل في النوم، فلما انتبه بعد العصر، وجد أن الناس قد انصرفوا إلا هو، فاستوحش الوحدة، وعمل على القيام، فإذا بأفعى غليظ الساعد طويل متدور على باب القبة كالطبق، ولم يجد سبيلا إلى الخروج، فيئس من نفسه، وتحيّر وجزع جزعا شديدا، فأخذ في التشهد والتسبيح والفزع إلى الله

(١) عائض القرني، مرجع سابق، ص: ٤٦٤، وأبو علي التنوخي، مرجع سابق، ص: ٢٧٨.

تعالى، وبينا هو في تلك الحالة فإذا بابن عرس[١] قادم من بعيد، فلمّا رأى الأفعى تأمّله، ثم رجع من حيث جاء وأتى ومعه ابن عرس آخر، فوقف أحدهما يتأمل على يمين القبة، والآخر على اليسار، وصار أحدهما عند رأس الحية والآخر عند الذنب – والحية غافلة عنهما – ثم وثبا عليها في آن واحد وعضاها؛ فاضطربت، ولم تفلت منهما، وجرّاها حتى بعُدا عن عيني الرجل، فخرج من القبة ومشى سالما غانما لم يصبه سوء[٢].

وقفة مع قصة رجل جاءه الرزق من حيث لا يحتسب:

يُروى أن رجلا ضاقت عليه الحيل، وأغلقت عليه أبواب المعيشة، وأصبح ذات يوم هو وأهله لا شيء في بيتهم، قال: فبقيت أنا وأهلي اليوم الأول جوعى، وفي الثاني، لَمَّا دنت الشمس للمغيب، قالت لي زوجتي: اذهب وانطلق والتمس لنا رزقا أو طعاما أو أكلا، فقد أشرفنا على الموت، قال: فتذكّرتُ امرأة قريبة لي، فذهبت إليها وأخبرتها الخبر، قالت: ما في بيتنا إلا هذه السمكة وقد أنتنت، قلت: عليّ بها، فإنا قد أشرفنا على الهلاك، وذهبت بها وبقرتُ بطنها، فأخرجت منها لؤلؤة، بعتُها بآلاف الدنانير، وأخبرت قريبتي، قالت: لا آخذ معكم إلا قسمي. قال: فاغتنيت فيما بعد، وأثثت من ذلك بيتي، وأصلحت حالي، وتوسّعت في رزقي. فهو لطف الله سبحانه وتعالى ليس غيره[٣].

وقفة مع قصة عابد ناله يسر وفرج بعد عسر وضيق:

كان رجل عابد في مكة، وانقطعت نفقته، وجاع جوعا شديدا، وأشرف على الهلاك، وبينما هو يدور في أحد أزقة مكة إذ عثر على عقد ثمين غال نفيس، فأخذه في كمه وذهب إلى الحرم، وإذا برجل ينشد عن هذا العقد، قال: فوصفه لي، فما أخطأ من صفته شيئا، فدفعت له العقد على أن يعطيني شيئا. قال: فأخذ العقد وذهب، لا يلوي

(١) ابن عرس: من فصيلة السموريات يشبه الفأرة بعض الشبه أصلم الأذنين، مستطيل الجسم، يفتك بيوت الدجاج والحمام.

(٢) أبو علي التنوخي، مرجع سابق، ص: ٢٦٢ – ٢٦٣.

(٣) عائض القرني، مرجع سابق، ص: ٤٥٤، وأبو علي التنوخي، مرجع سابق.

على شيء، وما سلّمني درهما ولا نقيرا ولا قطميرا. قلت: اللهم إني تركت هذا لك، فعوّضني خيرا منه، ثم ركب جهة البحر فذهب بقارب، فهبّت ريح هوجاء، وتصدّع القارب، وركب هذا الرجل على خشبه، وأصبح على سطح الماء تلعب به الريح يمنة ويسرة، حتى ألقته إلى جزيرة، ونزل بها، ووجد بها مسجدا وقوما يصلّون فصلّى، ثم وجد أوراقا من المصحف فأخذ يقرأ، قال أهل تلك الجزيرة: أئنك تقرأ القرآن؟ قلت: نعم. قالوا: علّمْ أبناءنا القرآن. فأخذت أعلّمهم بأجرة، ثم كتبت خطا، قالوا: أتعلّم أبناءنا الخط؟ قلت: نعم. فعلّمتهم بأجرة.

ثم قالوا: إن هنا بنتا يتيمة كانت لرجل منا فيه خير، وتوفّي عنها، هل لك أن تتزوجها؟ قلت: لا بأس. قال: فتزوجتها، ودخلت بها فوجدت ذلك العقد بعينه بعنقها. قلت: ما قصة هذا العقد؟ فأخبَرَت الخبر، وذكرت أن أباها أضاعه في مكة ذات يوم، فوجده رجل فسلّمه إليه، فكان أبوها يدعو في سجوده أن يرزق ابنته زوجا كذلك الرجل. قال: فأنا الرجل[1].

وقفة مع قصة عابد دعا الله زمن الجدب والقحط فنزل الغيث بعد القنوط:

يُحكى أن عابدا كان في بادية يعبد الله ويذكره دائما، فانقطعت المياه المجاورة له، وذهب يلتمس ماءً لأهله، فوجد أن الغدير قد جفّ، فعاد إليهم، ثم التمسوا الماء يمنة ويسرة، فلم يجدوا ولو قطرة، وأدركهم الظمأ، واحتاج أطفاله إلى الماء، فتذكّر رب العزة مجيب الدعوات، فقام فتيمّم، واستقبل القبلة وصلى ركعتين، ثم رفع يده وبكى، وسالت دموعه، وسأل الله بإلحاح، وتذكّر قوله: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ النمل: ٦٢، فما هو إلا أن قام من مقامه، وليس في السماء من سحاب ولا غيم، وإذا بسحابة قد توسّطت مكانه ومنزله في الصحراء، واحتكمت على المكان، ثم أنزلت ماءَها، فامتلأت الغدران من حولهم، وعن يمينهم وعن يسارهم، فشربوا واغتسلوا وتوضأوا، وحمدوا الله سبحانه وتعالى، ثم ارتحل قليلا خلف المكان، فإذا الجدب والقحط، فعلم أن الله ساقها له بدعائه، فحمد الله وأثنى عليه[2].

---

(١) المرجع السابق، ص: ٤٥٦.

(٢) عائض القرني، مرجع سابق، ص: ٤٥٥.